التكامل المعرفي بين السيرة النبوية والعلوم الشرعية

Cognitive integration between Biography of the Prophet and forensic sciences

محمد إلياس المراكشي

جامعة عبد المالك السعدي – تطوان – المغرب

ملخص:

حظيت السيرة النبوية في جميع مراحل الزمن، بعناية علماء الأمة بمختلف تخصصاتهم، جمعا وتمحيصا وتقريبا بمناهج محكمة ومتجددة، تتناسب مع الزمان والمكان وفكر الإنسان.

وإذا كانت حاجة الباحثين في العلوم الشرعية ماسة إلى إدراك منهجية التكامل المعرفي في النظر إلى العلوم الشرعية، لما تختزنه من آليات لاستمداد المعرفة من الوحي والعالم بواسطة العقل والحس، وترشيد التعامل مع التراث ومع الواقع، سعيا نحو إصلاح وتجديد الفكر الإسلامي؛ فإن من مداخل التجديد في دراسة السيرة النبوية، بيان مدى التكامل بينها وبين علوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلم الكلام، وعلم الفقه وأصوله، وعلم التصوف، بما يتناسب مع حاجات الباحثين في العصر الحاضر، وهو ما يروم هذا البحث تقديمه من خلال مباحثه الخمسة.

الكلمات المفتاحية : التكامل المعرفي – السيرة النبوية – العلوم الشرعية – التجديد – تكامل العلوم.

Summary:

The Prophet's biography was carefully studied by scholars in various specializations at all stages of history, compiled, scrutinized, and almost entirely with refined and renewed curricula, suit with time, place and human thought.

So if researchers in Sharia sciences need to understand the methodology of cognitive integration in looking at Islamic sciences, because of the mechanisms they store in terms of extracting knowledge from revelation and the world through reason and sense, and to rationalize dealing with heritage and reality, seeking to reform and renew Islamic thought

For Thant, one of the entrances of renewal in the study of the Prophet's biography is showing the extent of integration between it and the sciences of the Qur'an, of hadith, theology, jurisprudence and its origins, and mysticism, in line with the needs of researchers in the present era, which is what this research aims to present through its five chapters.

Key words : Cognitive integration – Biography of the Prophet – Islamic sciences – Cognitive renewal - Science integration

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين الملك الحق المبين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، والرضى عن آله الأطهار الطيبين وصحابته الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن السيرة لغة هي: السُّنَّة، والطريقة، والهيئة. واصطلاحاً لها تعريفات عديدة منها أنها:

– "الترجمة المأثورة لحياة النبي صلى الله عليه و سلم"[1].

– "التأريخ لحياته صلى الله عليه و سلم"[2]، بمعنى أنها تشمل جزءا من أقواله صلى الله عليه و سلم وأفعاله وسائر أحداث حياته.

وبالنظر إلى ما بين السيرة والسنة من تداخل، فإن من العلماء من ذهب إلى القول بالترادف بينهما، إذ كل منهما يطلق في اللغة على الطريقة، محمودةً كانت أو مذمومةً، ومن أهل اللغة من عرَّف السنة بالسيرة، وأن سنَّة رسول الله صلى الله عليه و سلم هي سيرته.

والسنة من وجهة نظر المحدثين هي: "ما أثر عن النبي صلى الله عليه و سلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلْقية أو خُلُقية أو سيرة، سواء كان قبل البعثة أو بعدها"[3].

وقد أدخل المحدثون السِّيرة في حد السُّنة على أنها جزء من أجزائها، لذلك أفردوا لها أبوابا ضمن مصنفاتهم الحديثية ترجموا لها بالمغازي والسير أو نحو ذلك، ومن هذا الوجه تكون السنة أعم من السيرة.

ولعل من التعريفات التي تُقرب مدلول السيرة النبوية قولنا: "إنها علم يعنى بأيام وأحوال ومغازي النبي صلى الله عليه و سلم وكل ما له صلة به من الزمان أو المكان أو الأحداث، من قبل ولادته إلى ما بعد وفاته".

وقد حظيت السيرة النبوية في جميع مراحل الزمن بعناية علماء الأمة، جمعا وتوثيقا، درسا وتمحيصا، تعليما وتقريبا، وحق لها ذلك، فهي بأمر الله تعالى وإرادته تتجدد مع طلوع شمس كل يوم، وتجد من يتعلمها ويحملها إلى الأجيال اللاحقة، لأجل ذلك يعمل الكاتبون والمؤلفون على إعادة صياغة فصولها واستنطاق مكنوناتها بلغة كل عصر، لذلك أكد علماء الإسلام أن من فاته علم السيرة النبوية فاته خير كثير، ويحسن به أن لا يعد نفسه من أهل العلم، ولو كان له رسوخ في علوم أخرى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومعلوم أن الله تعالى اختص نبيه صلى الله عليه و سلم بخصائص شريفة وخصال منيفة، قبل أن يجعله قدوة للعالمين، لذلك قال في حقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[4]، وقال مخبرا للأمة: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[5].

لذلك فإن ما يعرض من حين لآخر، لآحاد من أفراد الأمة أو جماعات منها أو من مفكريها، من ميل عن المنهج النبوي الذي يوافق بين الطاعة والاتباع والإبداع، يرجع إلى ذهول عن حقيقة تجلياته في السيرة النبوية، وإلى قصور في النظر إلى محاسن آثاره على الأمة، وهو ما يقتضي تجديد التعامل مع السيرة النبوية، ومن مداخل هذا التجديد، بيان مدى التكامل بينها وبين العلوم الشرعية (النظرية والسلوكية) بما يتناسب مع حاجات الباحثين والدارسين حسب الزمان والمكان.

وإذا كان من حاجات الناس المتجددة، إدراك التكامل بين الروح والجسد والفكر، وبين الشرع والعقل والوجدان، وبين العقيدة والفقه والتصوف وغير ذلك، فإن من حاجة الباحثين إدراك منهجية التكامل المعرفي في النظر إلى العلوم الشرعية، لما تختزنه من آليات لاستمداد المعرفة من الوحي والعالم بواسطة العقل والحس، وما تتضمنه من قواعد ترشد التعامل مع التراث الإسلامي والإنساني ومع الواقع، فتتيح بذلك آفاقا لإصلاح وتجديد الفكر الإسلامي.

وعن الدلالة اللغوية للتكامل يقول صاحب "شمس العلوم": «تَكَامَلَ الشيء: إذا كَمُل»[6]، وفي "معجم اللغة العربية المعاصرة": «تكاملت الأشياء: كَمَّلَ بعضها بعضا، بحيث لم تحتج إلى ما يكملها من خارجها»[7]، وفي "المعجم الوسيط": «تكامَلَ الشيء: كمُل شيئا فشيئا، والأشياء كَمّل بعضها بعضا»[8]. أما التكامل المعرفي فهو وصف لمنهجية في النظر، تنبثق من رؤية واضحة للوجود، توجه عمل العقل بأسلوب نسقي في التفكير والبحث والسلوك.

ويحيل التكامل بين العلوم على معنى الإلمام الشامل والموسوعية والانفتاح على علوم متعددة بمقدار حاجة بعضها إلى بعض، في سبيل تطوير المعرفة الإنسانية[9].

وبالنظر إلى التصور العام الذي طبع نظرة العلماء المسلمين إلى السيرة النبوية، ومناهج الاستمداد منها وعلاقتها بالعلوم الشرعية، نجد أن فكرة التكامل أو منهجية التكامل كانت حاضرة دائما في توجيه التعامل معها، وهو ما يتجلى بوضوح من خلال مستويين: المستوى النظري: يتجلى بشكل مباشر من خلال تعدد تصريحات وأقوال العلماء في هذا الموضوع. والمستوى العملي التطبيقي: يتجلى بطريقة غير مباشرة من خلال صنيع العلماء في مؤلفاتهم ومصنفاتهم، حيث لا تكاد تجد كتابا في العقيدة أو التفسير أو الأصول أو الفقه أو التصوف إلا وقد حضرت فيه مشاهد من سيرة رسول الله صلى الله عليه و سلم، أو رصعت أبوابه وفصوله باقتباسات من أقواله أو أحواله، أو أفعاله أو تقريراته أو نحو ذلك.

1- المستوى النظري:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من تجليات المستوى الأول المتعلق بأقوال العلماء –على مر التاريخ الإسلامي– في بيان مكانة السيرة النبوية، وبيان مدى التكامل بينها وبين مجالات العلم والمعرفة[10]:

– قول زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ت95هـ): "كنا نُعَلّم مغازي رسول الله صلى الله عليه و سلم وسراياه، كما نُعَلم السورة من القرآن". (وكلاهما يتعلم من أجل العمل)

– وقول ابن شهاب الزهري (ت124هـ): "في علم المغازي علم الدنيا والآخرة".

– وقول إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (ت134هـ): "كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه و سلم، ويقول: يا بَنِيّ هذه مآثر آبائكم، فلا تضيعوا ذكرها".

– ويقول الخطيب البغدادي(ت463هـ): "تتعلق بمغازي رسول الله صلى الله عليه و سلم أحكام كثيرة، فيجب كتبها والحفظ لها"[11].

– كما يقول ابن الجوزي (ت597هـ): "وأصل الأصول: العلم، وأنفع العلوم: النظر في سير الرسول صلى الله عليه و سلم وأصحابه، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾[12]".

– ويقول سلطان العلماء العز بن عبد السلام(ت660هـ): "اعلم أنه لا أدب كأدب رسول الله صلى الله عليه و سلم ولا خلق كأخلاقه، فمن وفقه الله أعانه على أخلاقه والاقتداء به، ليتخلق منه بما يقدر عليه ويصل إليه (...) فيا سعادة من اقتدى به، واستن بسيرته وأخذ بطريقته، وامتلأ قلبه من محبته"[13].

– ويقول الدكتور محمد أبو شهبة (ت1403هـ/1983م): "إن خير ما يتدارسه المسلمون، ولا سيما الناشئون والمتعلمون، ويُعنى به الباحثون والكاتبون، دراسة السيرة المحمدية، إذ هي خير معلم ومثقف، ومهذب ومؤدب، وآصَلُ مدرسة تَخَرّج فيها الرعيل الأول من المسلمين والمسلمات، الذين قلما تجود الدنيا بأمثالهم، ففيها ما ينشده المسلم، وطالب الكمال من دين ودنيا، وإيمان واعتقاد، وعلم وعمل، وآداب وأخلاق، وسياسة وكياسة، وإمامة وقيادة، وعدل ورحمة، وبطولة وكفاح، وجهاد واستشهاد، في سبيل العقيدة والشريعة والمثل الإنسانية الرفيعة، والقيم الخلقية الفاضلة[14].

– ويقول الشيخ محمد الغزالي (ت1416هـ/1996م) عن السيرة: "إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها –المسلم– ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها... إن المسلم الذي لا يعيش الرسول صلى الله عليه و سلم في ضميره، ولا تتبعه بصيرته في عمله وتفكيره، لا يغني عنه أبدا أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم والليلة"[15].

– ويقول الشيخ علي الطنطاوي (ت1420هـ/1999م): "إن سيرته صلى الله عليه و سلم الينبوع الصافي لطالب الفقه، والدليل الهادي لباغي الصلاح، والمثل الأعلى للأسلوب البليغ، والدستور الشامل لكل شُعب الخير"[16].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي(ت1420هـ/1999م): "إن السيرة النبوية وسير الصحابة وتاريخهم رضي الله عنهم من أقوى مصادر القوة الإيمانية والعاطفة الدينية، التي لا تزال هذه الأمة والدعوات الدينية تقتبس منها شعلة الإيمان وتشتعل بها مجامر القلوب، التي يسرع انطفاؤها وخمودها في مهب الرياح والعواصف المادية، والتي إذا انطفأت فقدت هذه الأمة قوتها وميزتها وتأثيرها، وأصبحت جثة هامدة تحملها الحياة على أكتافها[17].

وفي تجل آخر من تجليات التماهي مع السيرة النبوية، أورد الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني (ت1224هـ) في تفسيره "البحر المديد" عن أبي العباس المرسي(ت686هـ) أنه قال: "لي ثلاثون سنة، ما غاب عني الحق طرفة عين. وقال أيضاً: لو غاب عني رسول الله صلى الله عليه و سلم ساعة ما عددت نفسي من المسلمين". ونقل أيضا عن الشيخ علي الجمل العمراني (ت1194هـ) أنه قال: "مما منَّ الله به عليَّ، أني ما ذكرتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم ولا خطر على قلبي، إلا وجدتُني بين يديه"[18].

فهي مقامات أنوار وأسرار، وكل يستمد من السيرة حسب ما يفتح الله تعالى به عليه، والتكامل بينها وبين سائر مجالات المعرفة الإسلامية حاصل لا محالة، والإخلال بجزء منها بمثابة إخلال بالكل، وفي ذلك يقول الأستاذ سعيد حوى (ت1409هـ/1989م): "السيرة النبوية –في الأصل– هي الكتاب والسنة، إنك لا تعرف رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا إذا عرفت الكتاب الذي أنزل عليه، وعرفت مجموع أقواله وأفعاله وصفاته وتقريراته، وتلك هي سنته. لقد كان خلق رسول الله صلى الله عليه و سلم القرآن، ولقد كان القرآن نفسه سجلاً لأهم الأحداث في حياته صلى الله عليه و سلم فمن هنا قلنا إن القرآن سيرته، وإن أقواله وأفعاله وصفاته وتقريراته هي سيرته...وبهذا المعنى نقول: إن السيرة النبوية تَسَع الزمان والمكان والأشخاص، فهي منهج متكامل متجدد، فما من وَضْعٍ للإنسان وللناس وللمكلفين، إلا والسيرة النبوية تسعه قدوة وعملاً، ملاحظاً في ذلك أحوال الناس جميعاً ...على أن كُتاب السيرة درجوا على أن يرسموا صورة لشخصه ومسرى لأحداث حياته صلى الله عليه و سلم ومن ههنا أصبحت السيرة في الاصطلاح جزءاً من كلٍّ، وأصبحت عَلَماً على علم خاص أشبه بالتاريخ الشخصي وما يحيط به"[19].

وهنا تتجلى أهمية التخصص في السيرة النبوية والتعمق في دراستها لتجديد سبل الإفادة والاستمداد منها، سعيا نحو الارتقاء بالمشروع الفكري للأمة، وتطوير أدائها الحضاري حتى تستعيد مكانتها اللائقة بين الأمم، وهي مكانة القيادة والريادة، ويكفي أن نستحضر هنا أن كل تطوير وارتقاء يستدعي تصحيح الرؤية التي يُنظر بها إلى العالم، وتظافر الجهود وتحديد الوجهة، مع استيعاب دروس الماضي وإدراك حقيقة الواقع واستشراف المستقبل بوعي وتبصر، وهذا هو الأساس الذي تقوم عليه المنهجية المعرفية الإسلامية كما طورها عدد من المفكرين المسلمين المعاصرين، والتي هي في جوهرها منهجية التكامل المعرفي بامتياز، إذ تقتضي تحديد مصادر المعرفة وإدراك مدى التكامل بينها، وتحديد أدوات المعرفة وتحقيق التكامل في استخدامها، ثم الارتقاء إلى تحقيق التكامل بين مصادر المعرفة وأدواتها على مستوى التفكير والبحث والسلوك.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- المستوى العملي التطبيقي:

تتجلى منهجية التكامل المعرفي في تعامل العلماء المسلمين مع السيرة النبوية من خلال مظاهر عديدة، سواء كانوا مفسرين أو محدثين أو فقهاء أو أصوليين أو صوفية أو غيرهم، وذلك راجع في أصله إلى عدة اعتبارات نجملها فيما يلي:

أ- السيرة النبوية خادمة للقرآن والسنة: إذ تحدد الإطار العام للآيات القرآنية وأسباب نزولها، وأسباب ورود الأحاديث ومعرفة الناسخ والمنسوخ، كما تيسر تحديد دلالات النصوص الشرعية بالشكل الذي يقي من سوء الفهم ومن الزيغ أو الانحراف في التأويل.

ب- السيرة النبوية تطبيق حي لتعاليم الإسلام: كما أرادها الله تعالى أن تطبق على أرض الواقع، في العبادات والمعاملات وسائر المجالات، فتعاليم الإسلام لم تُنزل لتحصر بين جدران المساجد، بل تنزلت من الحكيم الخبير لتكون سلوكا إنسانيا ومنهجا حياتيا، يُنَشئ عليها الفرد حتى يشب، فتصيرا جزءا لا يتجزأ من كيانه، يتصرف على هديه في كل صغيرة وكبيرة.

ج- السيرة النبوية تظهر الصورة المشرقة للإنسان الذي يمارس إنسانيته بكل أبعادها: وفيها يجد كل شخص معالم الشخصية النموذجية التي يتوق إليها -لأن النفوس السليمة جبلت على التسامي والتعلق بالمثل الأعلى- والحياة المحمدية لم تعطل في الإنسان حاسة أو غريزة، بل استعملت كل واحدة في أدق ما يكون، فلم يكن صلى الله عليه و سلم منسلخا عن إنسانيته، بل عاش كل أحوالها ومشاعرها من الخوف والرجاء، الفقر والغنى، العزلة والاختلاط، العزوبة والزواج... وفي كل الأحوال كان يتبع منهجا واحد من الاستقامة والعدل والخلق الكريم، وقد أصاب ابن حزم حين قال: "فإن سيرة محمد صلى الله عليه و سلم لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة، وتشهد له بأنه رسول الله صلى الله عليه و سلم حقا، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته صلى الله عليه و سلم لكفى"[20].

د- من خلال السيرة تُعرف مواقف النبي صلى الله عليه و سلم: من الأحداث والقضايا التي كانت تواجهه ولا زالت وستبقى تواجهنا مثل: التكذيب والإساءة والحصار والحروب والمؤامرات والمكائد التي كان يحيكها أعداء الإسلام، وكيفية تعامل النبي صلى الله عليه و سلم معها، والصحابة من بعده.

هـ- بالسيرة النبوية تعرف المراحل التي مر بها بناء الحضارة الإسلامية: مرورا بأحداث ووقائع وغزوات ومعاهدات وتضحيات كبيرة، الأمر الذي يؤكد أن النهوض بهذه الأمانة لا يحتاج في أصله إلا إلى إمكانات بسيطة ضمن قدرات البشر، فقط تحتاج إلى العمل والصبر والصدق والإخلاص...

من هذه الاعتبارات يتبين أن الحديث عن التكامل المعرفي بين السيرة النبوية والعلوم الشرعية، فرع عن التكامل الإنساني الذي ظهر في أسمى تجلياته في شخص سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم، لذلك فإن الغرض من دراسة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السيرة النبوية وفقهها، ليس مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية، أو سرد قصص وأحداث طريفة، وإنما الغرض –كما يقول البوطي[21] – أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية في مجموعها متجسدة في حياته صلى الله عليه و سلم، بعد أن فهمها مبادئ وقواعد وأحكاما مجردة في الذهن، أي إن دراسة السيرة النبوية، ليست سوى عمل تطبيقي يراد منه تجسيد الحقيقة الإسلامية كاملة، في مثلها الأعلى محمد صلى الله عليه و سلم.

وبالتكامل بين السيرة النبوية وسائر العلوم الشرعية تدرك كل تلك الحقائق، وهو ما سنأتي على تفصيله من خلال التصميم الآتي:

- مقدمة
- المبحث الأول: التكامل المعرفي بين السيرة النبوية وعلوم القرآن
- المبحث الثاني: التكامل المعرفي بين السيرة النبوية وعلوم الحديث
- المبحث الثالث: التكامل المعرفي بين السيرة النبوية والعقيدة وعلم الكلام
- المبحث الرابع: التكامل المعرفي بين السيرة النبوية والفقه وأصوله
- المبحث الخامس: التكامل المعرفي بين السيرة النبوية وعلم التصوف
- خاتمة

المبحث الأول: التكامل المعرفي بين السيرة النبوية وعلوم القرآن

لما كان النبي صلى الله عليه و سلم مُبَلِّغ القرآن والرسالة والدين عن ربه عز وجل، فإنه أول وأعظم من فهم تشريعات القرآن ومقاصده، لذلك لم يقدم تفسيره للقرآن في شكل أقوال وأحاديث منطوقة فحسب، بل قدمه كذلك من خلال حياته الشخصية والاجتماعية، فكانت مواقفه وأفعاله وتصرفاته ترجمة فعلية للقرآن الكريم، ومِن ثم تُعد أحداث السيرة النبوية أرضاً خصبة للمفسرين، بما توفره من معرفة أسباب نزول الآيات، والمواقف التي نزلت فيها، وكيفية تطبيق الصحابة لها، حتى يكاد يستعصي الفهم الصحيح لبعض معاني القرآن في معزل عن السيرة.

* فما مدى حاجة السيرة النبوية إلى القرآن وعلومه، وما حاجة علوم القرآن إلى السيرة ؟

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اتفق الدارسون المتخصصون أن القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر السيرة النبوية، فهو يقص علينا جوانب عديدة ومراحل هامة من حياة النبي صلى الله عليه و سلم قبل النبوة وبعدها، فيحدثنا عن نشأته ويتمه وفقره وتحنثه، كما يذكر جملة من شؤونه بعد النبوة، وعددا من معجزاته مثل الإسراء والمعراج وانشقاق القمر، وطرفا من أخلاقه صلى الله عليه و سلم في معاملة أصحابه وأعدائه، وكذا هجرته وغزواته، وكل ذلك مذكور في القرآن ببيان واضح وأسلوب متين رائق، وقد حاول عدد من علماء المسلمين إفراد كتاب في السيرة النبوية بناء على ما تضمنه القرآن، منهم الأستاذ محمد عزة دروزة (ت1984م) صاحب كتاب "سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم صورة مقتبَسَة من القرآن الكريم"[22].

ولعل القرآن الكريم يُريد أن تكون علاقة الأمة برسول الله صلى الله عليه و سلم مبنِيَّةً على المعرفة الكاملة والمحبة القوية والاقتداء التام، لذلك يتّصِل القرآن بأبرز أحداث السيرة سردا وتوثيقا، كما تتصل السيرة بالقرآن وعلومه شرحا وبيانا وتفسيرا، وذلك ببيان حكمة تنزيل القرآن منجما، وبيان غاية التنوع الموضوعي والبياني بين السور المكية والآيات والسور المدنية، وتمييز أنواع الناسخ والمنسوخ وأسباب النسخ ودواعيه، وكذا معرفة أسباب النُّزول للآيات، خصوصا تلك التي كان لها ارتباط وثيق بأحداثها، مع الإشارة إلى بعض ضوابط الرسم القرآني، وحتى ما يتعلق بتنوع القراءات القرآنية وأسباب التباين بين ترتيب السور في المصحف وترتيب النزول وما إلى ذلك.

لذلك لا يسع مصنفي التفاسير القرآنيَّة تجاوز الأحداث والمواضيع المتَّصلة بالسيرة عند شرح وتفصيل الآيات المتَّصلة بها؛ خصوصا والقرآن أصدَقُ موثق لأحداث السِّيرة ووقائعها، وما دار فيها من غزواتٍ وأحداث، وأسباب نزول الآيات وأسباب ورود الأحاديث، مع أسس التَّشريع والتوجيه الذي بيَّنه رسول الله صلى الله عليه و سلم وطبَّقه تطبيقًا عمليًّا مجسدًا في المجتمع، لذلك فإن السِّيرة إذًا بيانٌ للقرآن وتفسيرٌ له، ودراستها دراسةٌ للتَّفسير من هذه الناحية.

ومن أمثلة ذلك، تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ اَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُومِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[23]، يقول العلامة التطواني أبو محمد عبد الوهاب لوقش (ت1341هـ) في تفسيره "نصرة الإسلام في إخراج مقامات الدين من القرآن": «وقد اتفق العلماء على أن ذلك كان يوم أحد..."، ثم ينقل عن بعض التفاسير ما ورد في شأن الآية ويقول: "إن هذه الآيات وعشرات بعدها نزلت في شأن غزوة أحد ويتوقف فهمها على الوقوف على قصة تلك الغزوة ولو إجمالا، فوجب لذلك أن نأتي قبل تفسيرها بما يعين القارئ على فهمها، ويبين له مواقع تلك الأخبار، وما فيها من الحكم والأحكام فنقول:...»، ثم شرع يسرد أحداث السيرة النبوية المتعلقة بغزوة أحد فيما يناهز عشر (10) صفحات[24]. وهذا مثال يؤكد أن أهل التفسير يقفون أحيانا عاجزين عن تقريب معاني بعض الآيات وتفسيرها إلا بعد الرجوع إلى مرويات السيرة النبوية.

وكذلك في الآية التي بعدها وهي قول الله عز وجل: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ﴾[25]، ما المقصود بالطائفتين؟ يذكر عبد الوهاب لوقش كذلك أن السيرة النبوية تبين أنهما "بنو سلمة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، وكادتا أن تجبنا وتضعفا عن قتال العدو يوم أحد حين رجع عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين وأصحابه من بين العسكر منهزما ليتبعه المسلمون، فينهزم الجميع ويُكذّب النبي صلى الله عليه و سلم...والله وليهما: الله حافظهما وعاصمهما..."[26].

مِن هذا نتبيَّن أنَّ فهم القرآن مُرتبط بفهم السِّيرة النَّبويَّة، والذي يلج إلى رحاب القرآن الكريم مرورا بأعتاب السيرة فإن فهمه وتفسيره لا يتوقف عند إدراك معاني الألفاظ ودلالات الآيات، بل يستفيد أيضا مما تكشف عنه السيرة من أحوال تسجل الانفعالات العاطفية والمشاعر الوجدانية التي عاشها النبي صلى الله عليه و سلم وصحابته وحتى أعداؤه، في أحداث متنوعة منها المنشط والمكره، والنصر والهزيمة، والإقدام والإحجام، وحتى عند التشاور في معركة البناء الأول لمقومات الدولة الإسلامية، فالسيرة النبوية لا تقدم لنا التشريعات القرآنية في قوالبها التطبيقية فحسب، بل تسجل حتى المشاعر الباطنية والأحاسيس الوجدانية لأولئك الذين نزلت فيهم تلك التشريعات لأول مرة، وتبين كيف اقتنعوا بها والتزموها وقاوموا العوارض والعوائق البشرية، وكيف طبقوا تلك التشريعات في واقعهم، والكيفيَّة التي ربوا بها أنفسهم حتى استقامت حياتهم وفق منهجها.

وهنا إشارات صريحة إلى أهمية السيرة النبوية في فهم أسباب النزول التي أكد العلماء على الأهمية البالغة لمعرفتها إذ هي سبيل قويم في فهم وتطبيق معاني القرآن الكريم، وهي تستعرض أسبابَ نزول كثير من الآيات والسور، وذلك ضروري لمن يتصدى لتفسير كلام الله عز وجل، لما هو معلوم من الارتباط بين السَبَب والمسَبِّب.

يقول أبو الحسن الواحدي(ت468هـ) في "أسباب النزول": "إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها"[27]، كما ألف الحافظ ابن حجر (ت852هـ) كتاباً خاصاً في أسباب النزول سمّاه : "العجاب في بيان الأسباب"[28]، وذكر فيه أمثلة من أسباب نزول كثير من الآيات القرآنية، وكل ذلك من خلال السيرة النبوية.

فلا غنى عن سيرة النبي صلى الله عليه و سلم في فهم القرآن الكريم وتفسيره، وبيان معانيه وتجلية مراميه ومقاصده الكبرى، فالسيرة النبوية هي التطبيق العملي لما جاء في القرآن الكريم، ومن تم فلابد لقارئه أن يتعَرف على سيرة النبي صلى الله عليه و سلم في كل أحواله.

المبحث الثاني: التكامل المعرفي بين السيرة النبوية وعلوم الحديث

إذا كان القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر السيرة النبوية، فإن المصدر الثاني[29] هو كتب الحديث، تلك الكتب التي حفظت أقوال النبي صلى الله عليه و سلم وأفعاله وأحواله وصفاته الخلقية والخلقية وسيرته، وتنوعت طريقة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عرضها لمادتها العلمية حسب المناهج التي ارتضاها مصنفوها، بين المصنفات والمسانيد والصحاح والسنن والمعاجم والمشيخات وغيرها، لتيسير تمييز الصحيح عن الضعيف والموضوع، والمقبول من المردود.

ويبدأ التكامل المعرفي بين السيرة والسنة وعلوم الحديث من التعريف الذي اصطلح عليه المحدثون للحديث وقد تقدمت الإشارة إليه، حيث جعلوا مرويات السيرة من ضمن المكونات التي يشملها حديث، وذلك من خلال قولهم إن الحديث هو "ما أثر عن النبي صلى الله عليه و سلم من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خلقية أو خلقية أو سيرة". وقد قام علم الحديث رواية على النقل المحرر الدقيق لكل ما له ارتباط بسيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم من أحداث تمتد منذ ما قبل ولادته إلى ما بعد التحاقه بالرفيق الأعلى.

وقد أكد النبي صلى الله عليه و سلم على لزوم الأخذ بحديثه الشريف، خصوصا مع انتشار التيارات الفكرية الفاسدة، والأعراف الاجتماعية المنحرفة التي تتطور مع سيرورة المجتمع، فحض صلى الله عليه و سلم على اتباع سنته وجعل مقابل ذلك الأجر المضاعف، فقال صلى الله عليه و سلم: «إِنَّهُ مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي، فَإِنَّ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»[30].

لذلك اعتنت الأمة الإسلامية بالحديث النبوي، فأوعته حوافظها الفذة، وبذلت من أجل جمعه وتمحيصه أعظم الجهد، وحازت سيرة النبي صلى الله عليه و سلم وأحاديثه وسننه من العناية والمحافظة ما لم يكن قط لنبي من الأنبياء، فقد نقل الرواة أقواله صلى الله عليه و سلم وأفعاله في الشؤون كلها العظيمة واليسيرة، بل في الجزئيات التي قد يتوهم أنها ليست موضع اهتمام، فنقلوا تفاصيل أحواله صلى الله عليه و سلم في طعامه وشرابه ويقظته ومنامه وقيامه وقعوده، حتى إن المتتبع لكتب السيرة وكتب السنة، المطلع على أبوابها ليدرك أنها ما تركت شيئا صدر عنه صلى الله عليه و سلم إلا روته ونقلته بمنهج أو مناهج وفق قوانين واضحة منضبطة.

وبما أن السِّيرة النَّبويَّة جزءٌ لا يتجزَّأ مِن علم الحديث، فإن المنهج النقديَّ لروايات السُّنة المحدد في علم مُصطلَح الحديث، هو المعتبَر في نقد مرويات السِّيرة مع شيء من المرونة الإضافية التي تقتضيها خصوصيات السيرة من ناحية عدم ترتب العقائد والأحكام عليها، وما زالت الكتابات تَتْرى في بيانِ ما ينبغي أن يتلقى بالقبول من السِّيرة وفق هذا المنهج.

يقول عز الدين بن جماعة (ت767هـ): «علم الحديث: علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والمتن، وموضوعه السند والمتن، وغايته معرفة الصحيح من غيره»[31]. ويستعمل علم الحديث عند كثير من العلماء المتقدمين بإطلاقين: علم الحديث رواية، وعلم الحديث دراية.

وقد يتساءل الباحث عن التكامل المعرفي بين السيرة النبوية وبين علم الحديث، هل له ارتباط بالرواية أم بالدراية؟

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا يتبين من خلال معرفة مدلول ومقصود كل واحد منهما، وقد اصطلح معظم المحدثين على أن علم الحديث رواية: "يشتمل على نقل ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه و سلم أو إلى صحابي أو تابعي، قولا أو فعلا أو هما، أو تقريرا أو صفة". ويقوم على النقل المحرر الدقيق لكل ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه و سلم والصحابة والتابعين. أما علم الحديث دراية: فهو علم يعرف به حال الراوي والمروي من جهة القبول والرد". وغايته: معرفة ما يقبل وما يرد[32].

وبالنظر إلى هذين التعريفين نجدهما يتقاطعان مع مواضيع السيرة، مثل الصِّفات الخلقيَّة والخلقية للنبِيِّ صلى الله عليه و سلم ودراسة أحواله قبل البعثة وبعدها، وهي كذلك من الموضوعات التي اعتنى بها المحدثون وأهل السير لمعرفة ما يقبل وما يرد، وهذا يوضِّح مدى التكامل بين السيرة وعلم الحديث رواية ودراية، مع محافظة كل منهما على خصوصياته.

فنجد أن السِّيرة والحديث يجتمعان مثلا في بيان صفة أَكْلِه صلى الله عليه و سلم وشربِه ونومه وما شابهَ ذلك، وينفرد الحديث بالروايات المتعلقة بالأحكام الفقهية، وتتميز السِّيرة بالتعَرُّض لِكثير من التفاصيل والجزئيات التي قد لا يعتني بها المحدث، مثل الأحداث التي رافقت مَولدِه صلى الله عليه و سلم والتعريف بنِسَبِة، وأجداده صلى الله عليه و سلم، كذلك ما يتعلق بالأماكن مر بها أو المواضع التي نزل فيها، والآبار التي شَرِبَ منها، وتفاصيل الغزوات وتوقيتها، وعَددِ مَن شَهِدَها، وكل ذلك يهدف إلى تحقيق مزيد من المعرفة الشخصية بالنبي صلى الله عليه و سلم والأحداث التي احتفت بدعوته، وكثيرة هي التفاصيل التي اعتنى بها أهل السِّيرة، ثم احتاجها شُرَّاح الحديث في شُرُوحهم وبالأحرى غيرهم من المفسرين والفقهاء.

ومن مظاهر خصوصية كل علم عن الآخر كذلك، نجد أنَّ الكتابة في السِّيرة النَّبوِيَّة يُلتفت فيها بشكل كبير إلى حيثيات "الزَّمان" و"المكان" و"الأحداث" التي ارتبطت بها، بينما يختلف منهَجُ التصنيف في الحديث حسب مَنهج كل مصنَّف حديثي وغرَضِ مُؤلِّفه وجامعه.

وقد وردت أحاديث كثيرة يتعذر تبين مدلول الأمر والنهي فيها بمنأى عن السيرة النبوية التي تتحدد من خلالها أسباب الورود، وتعتني مروياتها ببيان الزَّمان والمكان والأحداث، ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: "أن النبي صلى الله عليه و سلم نهى أن يشرب الرجل **قائماً**، قال قتادة: فقلنا: فالأكل؟ فقال: ذاك أشر أو أخبث"[33] ، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: "لا يشربن أحد منكم **قائماً**، فمن نسي فلْيستقِيءْ"[34]. فالظاهر من هذا أنه يدل على التشديد في المنع، والمبالغة في المنع تفيد التحريم.

لكن ورد في السيرة النبوية من فعله صلى الله عليه و سلم ما يبين مخالفة فعل النبي صلى الله عليه و سلم لقوله، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: "سَقَيت رسول الله صلى الله عليه و سلم من زمزم **فشرب قائماً**"[35] ، وروى البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه: "أتى عَلَى بَابِ الرَّحَبَةِ «فَشَرِبَ **قَائِمًا**» فَقَالَ: إِنَّ نَاسًا يَكْرَهُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَشْرَبَ وَهُوَ قَائِمٌ، وَإِنِّي «رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه و سلم فَعَلَ كَمَا رَأَيْتُمُونِي فَعَلْتُ»[36] ، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَنْصَارِيِّ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عَنْ جَدَّةٍ، لَهُ قَالَتْ: "إِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه و سلم دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا قِرْبَةٌ فَشَرِبَ مِنْ فِيهَا وَهُوَ **قَائِمٌ**"[37]. و عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ –عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه– قَالَ: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم يَشْرَبُ **قَائِمًا وَقَاعِدًا**"[38].

فهذه الروايات وغيرها تدل على أن أحاديث النهي عن الشرب قائماً تُحمل على الكراهة، لتحصيل ما هو أولى وأكمل، وليس النهي فيها للتحريم، وقال الإمام النووي في التوفيق بين الروايات: «ليس في هذه الأحاديث بحمد الله تعالى إشكال، ولافيها ضعف، بل كلها صحيحة، والصواب فيها أن النهي فيها محمول على كراهة التنزيه، وأما شربه صلى الله عليه و سلم قائما فبيان للجواز فلا إشكال ولا تعارض، وهذا الذي ذكرناه يتعين المصير إليه، وأما من زعم نسخا أو غيره، فقد غلط غلطا فاحشا، وكيف يصار إلى النسخ مع إمكان الجمع بين الأحاديث لو ثبت التاريخ وأنى له بذلك والله أعلم، فإن قيل كيف يكون الشرب قائما مكروها وقد فعله النبي صلى الله عليه و سلم، فالجواب أن فعله صلى الله عليه و سلم إذا كان بيانا للجواز لا يكون مكروها، بل البيان واجب عليه صلى الله عليه و سلم فكيف يكون مكروها (...) فكان صلى الله عليه و سلم ينبه على جواز الشيء مرة أو مرات، ويواظب على الأفضل منه، وهكذا كان أكثر وضوئه صلى الله عليه و سلم ثلاثا ثلاثا، وأكثر طوافه ماشيا، وأكثر شربه جالسا، وهذا واضح لا يتشكك فيه من له أدنى نسبة إلى علم والله أعلم، وأما قوله صلى الله عليه و سلم: "فمن نسى فليستقىء" فمحمول على الاستحباب والندب، فيستحب لمن شرب قائما أن يتقايأه لهذا الحديث الصحيح الصريح، فإن الأمر إذا تعذر حمله على الوجوب حمل على الاستحباب»[39].

– التكامل بين تدوين السنة وتدوين السيرة:

إذا علمنا أن تدوين وكتابة الحديث بدأ بشكل فعلي من خلال الصحف المنفردة التي كان يكتبها بعض الصحابة رضي الله عنهم، وهو ما نقله عنهم كبار التابعين إلى أن بدأت حركة التدوين الرسمية مع نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني[40]، فإن تدوين المغازي والسير كان بالتوازي مع ذلك، إذ المقرر أن أول من دَّون في السيرة، في موضوع المغازي عروة بن الزبير بن العوام (ت94هـ) وأَبَان بن عثمان بن عفان (ت101 أو 105هـ) –ويُروى أن كتابَه كبيرٌ، وأنه يبرز فضائل الأنصار– وعامر بن شرَاحيل الشَّعْبي (ت103هـ) وله كتاب المغازي، وعاصم بن عمر بن قَتَادة (ت119هـ)، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت124هـ)، وشُرَحْبيل بن سعد المدني (ت123هـ)، ويزيد بن هارون الأسدي المدني (ت103هـ)، وعبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم (ت135هـ)، وموسى بن عقبة (ت140هـ) وكتابه أصحها على صغره كما يقول الشافعي؛ وغيرهم حتى جاء ابنُ إسحاق (ت151هـ).

ولعل من أبرز أسباب التباين بين منهج المحدثين في نقد المرويات الحديثية ومنهج أهل السير في جمع مرويات السيرة، مسألة الغاية والمقصد من كل نوع من الروايات، فالرواية الحديثية يتعلق بعضها بالعقيدة وبعضها بالتشريع، لذلك لم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يتساهل فيها أغلب المحدثين، بينما مرويات السيرة إنما يتعلق بها التأريخ والعبر والمواعظ، وتجمع بقصد الاعتبار والاستئناس، وهذا يحيل إلى قضية أخرى تتعلق بالفرق بين المحدث والأخباري[41] الذي يعنى بتوثيق الحدث وما يتعلق به من أخبار وقرائن، ومع ذلك كان الأخباريون يعتنون بالأسانيد التي ينقلون بها تلك الأخبار.

وقد سارع المحدثون منذ نهاية القرن الثاني الهجري إلى البدء بعملية النقد الحديثي وتمحيص المرويات الحديثية لشدة الحاجة إلى معرفة المقبول والمردود لبناء المذاهب الفقهية، بينما تأخرت عملية نقد مرويات السيرة النبوية إلى ما بعد ذلك، لأن القصد منها هو الجمع والتوثيق أكثر من الاستنباط والاستدلال، دون إنكار المجهودات التي قام بها المحدثون في عملية النقد خصوصا مصنفي الجوامع التي تشمل أبواب الدين الثمانية والتي من ضمنها أبواب تتعلق بالتاريخ والمغازي والسير، ويورد فيها كل مصنف ما ثبت لديه من الأخبار بأسانيده التي يرتضيها حسب منهجه في الكتاب.

وإذا كان المحدثون قد اصطلحوا من خلال علم مصطلح الحديث على تقسيم الروايات الحديثية إلى مقبول ومردود، ثم تواضعوا على قولهم صحيح وحسن وضعيف، وضمن كل واحد منها أنواع مفصلة، فإن بعض المعاصرين اقترح أن يتم تصنيف مرويات السيرة على غير التصنيف المتقدم، من خلال مراتب ثلاث هي: مقبول، ثم معقول، ثم متروك، فالمقبول: هو ما سَلِمَ إسناده من متروك أو كذاب، وإن كان فيه انقطاع أو جهالة راوٍ، ولم يكن في متنه ما يعارض نصاً صحيحاً، والمعقول: ما كان متنه معقولاً، وممكن الوقوع، ولا يعارض نصاً صحيحاً، بغض النظر عن حال رواته، والمتروك: ما كان متنه منكراً، يناقض نصاً صريحاً، أو غير ممكن عقلاً أو عرفاً، مهما بلغ إسناده من الصحة؛ كما اقترح استعمال مصطلحات أخرى[42].

ولعل من بدع القول في هذا الزمان، المناداة بضرورة تطبيق منهج المحدثين بكل ما فيه من صرامة وتشديد في نقد مرويات السيرة النبوية، لأن ذلك سيضعف علمنا بكثير من الأحداث والوقائع التي لا سبيل إلى معرفتها والعلم بها إلا من خلال السيرة، وقد تصبح السيرة النبوية في صفحات إن لم نقل في أسطر معدودة، مما سيقلل من فوائدها التربوية والخلقية، ويضعف من شأنها في التأسي[43]، ولو كان للأمر ضرورة لكان المحدثون الأوائل أول من تصدى لهذا العمل، ولما ترددوا في القيام بهذا العمل، خصوصا إذا استحضرنا قاعدة: "ضعف السند لا يقتضي ضعف المتن، وصحة السند لا تقتضي صحة المتن"، لأجل ذلك تساهل المحدثون أنفسهم في نقد الروايات الحديثية التي لم يجدوا لها إسنادا تقوم به الحجة، فنجد البخاري يورد بعضها تعليقا في تراجم الأبواب، ونجد أصحاب السنن ينقلون بعض أحاديث الأحكام بأسانيد ضعيفة ثم يبينون أنها قد تم تلقيها بالقبول وجرى عليها عمل الفقهاء في زمانهم، كما يشير إلى ذلك الإمام أبو داود والترمذي، كما أن التحقق من صحة مرويات السيرة أمر متيسر من خلال[44]:

* عرض الخبر على: القرآن الكريم، والسنة الصحيحة،

والحقائق والمعلومات التاريخية الثابتة، والقواعد والمسلمات العقلية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مثال للتكامل بين السيرة النبوية وعلم الحديث:

في حديث الثلاثة الذين خُلّفوا في غزوة تبوك، وهجر النبي صلى الله عليه و سلم والصحابة لكعب بن مالك في الصحيح وقوله: "هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ رَجُلاَنِ، قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ، وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ، قَدْ شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِمَا أُسْوَةٌ"[45] يقول ابن القيم: «هذا الموضع مما عد من أوهام الزهري، فإنه لا يحفظ عن أحد من أهل المغازي والسير البتة ذكر هذين الرجلين في أهل بدر، لا ابن إسحاق، ولا موسى بن عقبة ولا الأموي، ولا الواقدي، ولا أحد ممن عد أهل بدر، وكذلك ينبغي ألا يكونا من أهل بدر... قال أبو الفرج بن الجوزي: ولم أزل حريصا على كشف ذلك وتحقيقه حتى رأيت أبا بكر الأثرم قد ذكر الزهري، وذكر فضله وحفظه وإتقانه، وأنه لا يكاد يحفظ عليه غلط إلا في هذا الموضع، فإنه قال: إن مرارةَ بنَ الربيع، وهلالَ بنَ أمية شهدا بدرا، وهذا لم يقله أحد غيره، والغلط لا يعصم منه إنسان»[46].

وبناء عليه يلمح ابن القيم إلى رد رواية الزهري المتفق عليها في الصحيحين، لأن أهل المغازي والسير لم يذكروا في مصنفاتهم اسم هذين الرجلين في أهل بدر، علما أن من ذكر أهل بدر من أصحاب المغازي ذكروهم سردا دون ذكر إسناد. وهذا ليس من المنهج السديد في التعامل مع الرواية الصحيحة المتصلة الإسناد، وبالأحرى الرواية المتفق عليها التي تعد من أعلى درجات الصحيح، كما بين ذلك المحدثون، وقال الحافظ العراقي (ت806هـ) في ألفيته[47]:

وَأَرْفَعُ الصَّحِيحِ مَرْوِيُّهُمَا * ثُمَّ البُخَارِيُّ، فَمُسْلِمٌ، فَمَا

شَرْطَهُمَا حَوَى، فَشَرْطُ الجُعْفِي * فَمُسْلِمٌ، فَشَرْطُ غَيْرٍ يَكْفِي

وإنما تمت الإشارة إلى ذلك في هذا الموضع فقط لبيان مكانة أهل السير ومروياتهم عند بعض الفقهاء وكبار العلماء، وإلا فالأولى أن يضاف هذان الصحابيان في أهل بدر بناء على ورودهما في حديث متفق عليه ومن رواية الزهري الذي كان إمام المحدثين، وأعلم الناس بالسيرة في زمانه، ولكن المناهج قد تختلف فتتعدد وجهات النظر.

المبحث الثالث: التكامل المعرفي بين السيرة والعقيدة وعلم الكلام

لا يخفى على الباحثين في السيرة النبوية أن النبي صلى الله عليه و سلم ظلّ خلال المرحلة المكية من الدعوة الإسلامية ثلاث عشرة سنة يجتث جذور الشرك من النفوس، ويرسخ عقيدة التوحيد في القلوب والعقول، وكذلك كان الأمر حتى خلال المرحلة المدنية مع زيادة الاهتمام والانشغال بتثبيت أصول التشريع وأمهات العبادات والأحكام، والقيم والأخلاق والفضائل العليا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبالتالي فإن الحديث عن التكامل المعرفي بين السيرة النبوية وبين العقيدة، إنما هو حديث عن شيئين مندمجين اندماج الروح في الجسد واندماج العدد في المعدود، نظرا للمكانة التي تحتلها القضايا العقدية في منظومة التشريع، ولما لها من أثر في تثبيت الإيمان وتقويم الفطرة، الأمر الذي يضع المحددات والضوابط لكل فكر وقول سليم، وكل عمل أو سلوك قويم.

هذا وإن ما تذكره السيرة النبوية من تضحيات النبي صلى الله عليه و سلم وتضحيات الصحابة الكرام في سبيل نصرة دين الله تعالى في كل الأحداث والغزوات، إنما هي ترجمة عملية للعقيدة الصحيحة التي صنعت منهم رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار.

والملاحظ أن آيات القرآن التي توثق للمرحلة المكية من السيرة النبوية، لم تحاول أن تثبت وجود الله، لأن وجود الله حق في ذاته، والمنطقة العربية لم تكن ترفض هذه القضية، فوجود الله تعالى عقيدة كان يؤمن بها أهل الجزيرة العربية من أصحاب الديانات اليهودية والمسيحية والوثنية، لكن مسألة التوحيد كانت هي الجوهر الأساس للقضاء على الشرك، وترسيخ منهج عبادة الله الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ولد[48].

وبالتالي حينما نتحدث عن منهج النبي صلى الله عليه و سلم في تثبيت العقيدة الصحيحة، لا نتحدث عن منهج معقد يقتضي الكثير من الحجاج والبرهنة على وجود الله أولا ثم البرهنة على وحدانيته، لأن العرب كانوا يقرون بوجود الخالق، وكثيرة هي الآيات القرآنية التي ترسم صورة لعقيدة العرب قبل الإسلام، والتي تؤكد أن أصل من التوحيد كان حاضرا ثم وقع فيه انحراف، ويكاد يتفق الكاتبون على أن عابدي الأصنام أقروا أنهم عبدوها كوسيلة تقربهم إلى الله؛ كما كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام ويعتزون بعقيدتهم على هذا الأساس من النسب، ولم يكونوا يحفلون بديانة مسيحية أو يهودية، مما كان لها وجود ما في الجزيرة العربية اعتزازا منهم بأنهم على دين إبراهيم عليه السلام، ولو أنهم كانوا غير منتبهين إلى ما صارت إليه أعمالهم من الشرك والوثنية.

وبذلك يمكن القول إن دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم إلى توحيد الله لم تكن بدعا من الأمر، فهي في جوهرها مجرد تطهير للفكرة التي آمن بها العرب، وهي بمثابة إزالة للشوائب التي رانت عليها، ودعوة إلى تنزيه الله عز وجل عما اخترعوه لأنفسهم من نظام تعبدي لا يتفق توحيد الله عز وجل[49].

لهذا أولى القرآن الكريم اهتماما كبيرا في المرحلة المكية بذكر سيرة إبراهيم عليه السلام، الذي كان يدعي العرب أنه جدهم وأنهم على دينه، مع بيان مدى رفضه للأصنام وبراءته من عبادة الأوثان، وتوثيق المناظرات التي أجراها مع قومه حكاما ومحكومين ونحو ذلك، مع تأكيد انتساب الملة المحمدية للملة الإبراهيمية، كما حرص النبي صلى الله عليه و سلم على استعمال أسلوب الحجاج نفسه في دعوة المعاندين إلى التجرد من الموروث الثقافي الذي يبعدهم عن التفكير السليم في التوصل إلى الحقيقة، مع دعوتهم إلى التفكر في آثار قدرة الله جل شأنه وتعريفهم طريقة استخدام هذا المنهج.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فبين أن الأولى لهم أن يخلعوا عن أنفسهم التبعية للآباء والخضوع للعادات، واتباع الظن الذي لا يغني من الحق شيئا، وأن الأولى لهم أن يتفكروا ويتدبروا.

ومن النماذج التي يمكن الاستشهاد بها في هذا الموضع، والتي تكشف عن جانب من منهج النبي صلى الله عليه و سلم في الدعوة إلى التوحيد ما دار بَيْنَ عُتْبَة بن ربيعة وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ زِيَادٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، قَالَ: حُدِّثْتُ أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَكَانَ سَيِّدًا، قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيهِ أَيَّهَا شَاءَ، وَيَكُفُّ عَنَّا؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ، فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمْهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم، فَقَالَ: يَا ابن أَخِي، إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنْ السِّطَةِ [الشرف] فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ، وَعِبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنّا بَعْضَهَا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم: قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، أَسْمَعْ، قَالَ: يَا ابن أَخِي، إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا، حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رِئْيًا [ما يرى من الجن] تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ، وَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ التَّابِعُ [من يتبع الناس من الجن] عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوَى مِنْهُ أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ. حَتَّى إِذَا فَرَغَ عُتْبَةُ، وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم يَسْتَمِعُ مِنْهُ، قَالَ: أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاسْمَعْ مِنِّي، قَالَ: أَفْعَلُ، فَقَالَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيراً وَنَذِيراً، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ﴾[50] ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ. فَلَمَّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ، أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ ثُمَّ قَالَ: قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ.

فَقَامَ عُتْبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ. فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: وَرَائِي أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاَللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاَللَّهِ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ، وَلَا بِالسِّحْرِ، وَلَا بِالْكِهَانَةِ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، وَخَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فاعتزلوه، فو الله لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ، قَالُوا: سَحَرَكَ وَاللَّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ، قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ»[51].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من خلال هذا الحدث السيري يتبين كيف أفاد النبي صلى الله عليه و سلم من آيات القرآن الكريم في مخاطبة ذوي العقول، وهذا منهج عقدي يجب توظيفه في الدعوة إلى التوحيد، وهكذا يتأكد أن مناهج علماء الكلام في الحجاج عن العقائد الإيمانية تراعى فيها الأدلة والبراهين التي تتناسب مع عقول المخاطبين، والتي من شأنها أن تؤثر فيهم.

وهذا يتعزز أيضا بالنظر في حدث سيري آخر، هو ما وَرَدَ في حديث مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: «... وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ [أغضب] كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: "ائْتِنِي بِهَا" فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: "أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ"»[52].

ولا شك أن المقصود بهذا ليس هو إثبات الجهة في حق الله سبحانه وتعالى، وإنما مجرد الامتحان والتحقق من سلامة توحيد الجارية وعبادتها وتوجهها لله تعالى الواحد الأحد، دون ما كان معهودا عند العرب من عبادتهم لآلهة الأرض المتمثلة في الأصنام.

بهذا تتبين بساطة المنهج النبوي في تقريب قضايا العقيدة، وأن الإيمان الصحيح لا يقتضي التعمق في إدراك تفاصيل الجزئيات العقدية، وإنما تلك مستويات قد يرتقي علماء الكلام في طلبها والحجاج عنها بالأدلة العقلية والمنطقية، إن دعت إلى ذلك ضرورة حسب طبيعة المخاطبين ومستواهم العلمي والمعرفي.

لهذا لجأ الأشاعرة إلى المزاوجة بين منهج التفويض ومنهج التأويل في التعامل مع مبحث الصفات مثلا، لتنزيه الباري جل وعلا في ذاته وصفاته وأفعاله، وطرح المعنى أو المعاني التي قد تقتضي النقص أو التشبيه أو نحو ذلك، حفاظا على صفاء المعتقد وسلامة الفطرة بالنسبة لكل فئة من فئات المخاطبين.

فلما تقرر أن الله تعالى متصف بكل الكمالات، منزه عن كل النقائص، اعتمد السادة الأشاعرة هذا النهج في التعامل مع مبحث الصفات، فأثبتوا الصفات الواجبة في حق الله تعالى، ونفوا الصفات المستحيلة، واقتضى هذا التنزيه اللجوء إلى التأويل فيما يوهم التشبيه أو يوقع فيه، لأن التأويل في أصله لا ينقض الإثبات والتفويض، وقد فسح له الإمام أبو الحسن الأشعري مجالا وحيزا، إذا اعتمدت فيه القواعد الصحيحة والضوابط الرجيحة وعضدته المرجحات وقرائن الحمل، وهذا ما أتاح له اتخاذ مواقف مستثناة من المواقف التفويضية، والميل إلى اختيار النهج التأويلي لبعض الصفات عندما ظهرت له حجج تسويغية سليمة، فنجده يختار تأويل صفات "المعية" بالعلم، و"الرضا" بإرادة النعيم لمن يرضى عنهم، و"الغضب" بإرادة عذاب من يغضب عليهم..[53].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونستفيد ذلك أيضا من منهج النبي صلى الله عليه و سلم في تثبيت العقيدة حتى لدى صحابته، وفي أواخر أيام دعوته، فعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ، مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا: "**ذَاتُ أَنْوَاطٍ**" يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجْعَلْ لَنَا "**ذَاتَ أَنْوَاطٍ**" كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه و سلم: "سُبْحَانَ اللَّهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[54]، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ"[55].

وكان من معتقد المشركين أن تلك الشجرة تبارك أسلحتهم وتعينهم في قتالهم، وقول النبي صلى الله عليه و سلم في آخر الرواية، فيه تهديد شديد ووعيد ينبه أصحاب عقيدة التوحيد إلى خطورة التقليد في مسائل العقيدة، وأهمية صيانة المعتقد من كل ما يخدشه.

ومن هنا نقول إن أي مشروع للإصلاح الفكري والإقلاع الحضاري، ينبني بالأساس على سلامة المعتقد الذي يوحد الوجهة ويصحح الرؤية، لذلك فإن مشروع الإصلاح الفكري الذي تبناه المعهد العالمي للفكر الإسلامي –على سبيل المثال– في العصر الحاضر يقوم على منظومة القيم العليا الحاكمة وهي: التوحيد والتزكية والعمران، وعنها تنبثق سائر القيم الفكرية والضوابط السلوكية، وقد كتب حولها الدكتور طه جابر العلواني كتابا بعنوان "التوحيد والتزكية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة".ط، كما أفرد لها الدكتور فتحي ملكاوي كتابا خاصا بعنوان: "منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران".ط، اعتمادا على ما ورد في القرآن والسنة والسيرة النبوية.

المبحث الرابع: التكامل المعرفي بين السيرة النبوية والفقه وأصوله

يبين جمال الدين بن الحاجب (ت646هـ) مدلول السنة النبوية بقوله: «لغة: الطريقة والعادة، وفي الشرع: في العبادات النافلة، وفي الأدلة: ما صدر عن الرسول غير القرآن من قول وفعل وتقرير»[56]، وهو تعريف يستفاد منه مدلول السنة عند الفقهاء الذين يطلقونها على ما يقابل الفرائض من النوافل، كما يستفاد منه مدلول السنة عند الأصوليين الذين يقصرون السنة على ما يصلح أن يكون دليلا لحكم شرعي.

وهذا مباين لتعريف المحدثين المتقدم الذي يشمل بالإضافة إلى ما ذكر، الصفات الخلقية والخلقية، كما أدخل أصحابُه السِّيرة في حد السُّنة على أنها جزء من أجزائها، بينما مايز الأصوليون بين السنة والسيرة، فاستثنوا من التعريف لفظتي "صفة" و"سيرة"؛ لأنهم يبحثون في الأمور التشريعية العَمَليَّة.

فهل هذا يعني عدم التفات الأصوليين والفقهاء إلى السيرة النبوية ؟ وهل يستلزم هذا القطيعة التامة بين الفقه والأصول وعلم السيرة النبوية ؟

أولا : السيرة النبوية وعلم أصول الفقه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يعرف علم أصول الفقه بأنه: «العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية»[57]، وهذه الأدلة التفصيلية كثيرة ومتنوعة، ومنها المتفق عليه ومنها المختلف فيه، وفي مقدمتها القرآن الكريم والسنة النبوية بكل ما تشتمل عليه من روايات تعبر عن أقوال النبي صلى الله عليه و سلم وأفعاله وتقريراته.

ولما كانت مرويات السيرة النبوية تشمل جوانب عديدة من الأقوال والأفعال المرتبطة بأحداث معينة أو بزمان أو مكان محددين، فإنها مندرجة لا محالة ضمن ما يصطلح عليه بـ "الأدلة التفصيلية"، لأن السيرة النبوية هي التطبيق العملي للكتاب والسُنة، ويتعذر فهم كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فهماً لغوياً مجرداً –اعتمادا على القواعد الأصولية فحسب– في مَعْزِلٍ عن طريقة تطبيق النبي صلى الله عليه و سلم لهما، ومن ثم ترتبط السيرة ارتباطاً وثيقاً بالقرآن والسنة، ولا غناء للمسلمين عنها إذ يفترض أنهم يعيشون في كل عصر في ظلال القرآن الكريم وتفسيره، والأحاديث النبوية وشروحها.

فإذا كان اهتمام الأصولي لا ينصب بشكل مباشر على كل مرويات السيرة النبوية، فإنه يهتم بجزء هام منها، في حدود ما يصلح أن يعتبر دليلا تفصيليا يمكن أن تبنى عليه الأحكام، أو أن يستنبط منه فقه، وذلك أولا ببيان مدى قوتها الإلزامية، بحسب كونها متواترة أو صحيحة أو حسنة أو غير ذلك، مع وضع القواعد التي تجمع أو ترجح بين النصوص، والتي تستعمل للتمييز بين درجات الأحكام الشرعية، وتحديد الفوارق بين الرخص والعزائم، وبين العام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمبين والمنظوم والمفهوم والمعنى المعقول وغير ذلك.

ولما كان لعلم السيرة النبوية مزيد اعتناء بأفعال النبي صلى الله عليه و سلم، وأفعاله صلى الله عليه و سلم من سنته فإن الأصوليين توسعوا في بيان القواعد الأصولية التي تضبط منهجية التعامل مع أفعاله صلى الله عليه و سلم حتى يستقيم الاحتجاج بها أو الاستنباط منها، وهو مبحث هام من مباحث السيرة والسنة، لمعرفة حكم فعل النبي وحكم تركه، وعلى ماذا يحمل كل من الفعل والترك، ومتى يجوز تعميم حكم فعله ومتى يجب قصره عليه صلى الله عليه و سلم، وكل ذلك مفصل في كتب الأصوليين وإن اختلفت أنظارهم إلى ذلك، إلا أنه مستفاد من كثير من مباحث السيرة وفصولها، وتلك القواعد في حد ذاتها سند كبير ومعين لكل دارس للسيرة النبوية، يستوضح من خلاله حقيقة كثير من أفعال النبي صلى الله عليه و سلم وتروكه.

ومن خلالها نستطيع أن ندرك كثيراً من الأخطاء التي شاعت وانتشرت في هذا الزمان من خلال صنيع أناس يعتقدون حِرمة كل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه و سلم، كذلك من يعتقدون وجوب كثير من الأعمال لمجرد فعل الرسول صلى الله عليه و سلم لها.

وأفعال الرسول صلى الله عليه و سلم منها ما يفيد الإباحة، ومنها ما يفيد السنية، ومنها ما يفيد الوجوب، والقرائن هي التي تحدد، وللقرائن أيضا دخل حتى في فهم الوجوب أو الحرمة من أوامره ونواهيه صلى الله عليه و سلم، فإذا كان

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأمر بهذا التفصيل، هل يحق لكل أحد أن يقول عن أفعال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن هذا يفيد السنية، وهذا يفيد الوجوب؟ أو أن يقول عن نواهيه: هذا يفيد الكراهة وهذا يفيد الحرمة، لمجرد ورود حدث في السيرة النبوية يثبت أو ينفي؟[58].

وهذا حق مكتسب، لا يمتلكه إلا من استجمع شروط وصفات المجتهد، وقد كان القصد من وضعها من طرف الأصوليين أن تكون معارج للوصول إلى مراتب المجتهدين، أكثر من أن تكون مثبطات تحول دون تطاول غير المؤهل على ادعاء أفهام أو استنباط أحكام.

هنا يظهر مدى التكامل والاندماج بين السيرة النبوية وبين علم أصول الفقه، وحاجة كل منهما للآخر، وإن كانت الحاجة إلى علم الأصول في قراءة السيرة أكبر وأظهر، فهو العلم الذي من شأنه أن يعصم الفكر -بتوفيق من الله عز وجل- من الخلل والزلل.

وقد حصل تطور منهجي في ما ذهب إليه أصوليو المالكية من قواعد بخصوص أفعال النبي صلى الله عليه و سلم يتجلى على النحو الآتي[59].

ذهب أبو بكر الأبهري (ت375هـ) وأبو الوليد الباجي (ت474هـ)، إلى أن الفعل المطلق من النبي إن ظهر فيه قصد القُربة يحمل على **الوجوب**، وأضاف الباجي أن ما لا قُربة فيه يحمل على الندب، وذهب كل من ابن خويز منداد (ت390هـ)، وابن القصار (ت397هـ)، والقاضي عبد الوهاب (ت422هـ) إلى أن أفعال الرسول صلى الله عليه و سلم الواردة ابتداء تحمل على **الوجوب**.

وخالفهم في ذلك أبو الحسن بن المنتاب إذ ذهب إلى أن أفعال النبي صلى الله عليه و سلم محمولة على **الندب**، واختار كل من ابن العربي (ت543هـ) وابن رشد (ت595هـ) وابن الحاجب (ت646هـ) والشريف التلمساني (ت771هـ)، التفصيل فيها إذ ذهبوا إلى أن الفعل المطلق إن ظهر فيه قصد القربة حمل على **الندب**، وإن لم يظهر حمل على **الإباحة**.

واختار أبو بكر الباقلاني (ت403هـ) وابن جزي (ت741هـ)، **التوقف** في الفعل المطلق الصادر عن النبي صلى الله عليه و سلم، لأن أفعاله فيها المباح المأذون فيه، وفيها الواجب المفترض، وفيها المندوب إليه المستحب.

وخالفهم من بعدهم، إذ ذهبوا إلى أن الفعل المطلق من النبي صلى الله عليه و سلم يحمل على **الإباحة**، فاختار المازَري (ت536هـ) حمله على الجواز، واختار الأبياري (ت616هـ) حمله على نفي الحرج عن الأمة، وقال الحسين بن رشيق (632هـ) بجواز الاقتداء به صلى الله عليه و سلم فيه، واعتبر الشاطبي (ت790هـ) الفعل منه صلى الله عليه و سلم دليلا على مطلق الإذن.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكأنه حصل تدرج في اعتبار الفعل المطلق من رسول الله صلى الله عليه و سلم من الوجوب إلى الندب إلى القول بإباحته، بعدما توقف في حكمه من توقف حتى يتبين أمره بالقرائن.

ثانيا : السيرة النبوية وعلم الفقه

منذ بداية الدعوة الإسلامية، اتجهت جهود النبي صلى الله عليه و سلم إلى ترسيخ العقائد أولا، ثم العبادات فأصول المعاملات التي كان أغلبها لا يحتاج سوى إلى شيء من التصويب أو التصحيح، فأوجد منهجاً متكاملاً في أمور العبادات العملية بجميع أشكالها، واتخذ في ذلك منهج التدرج في الممارسة العملية ليتلقى ذلك بالقبول وعدم النفور.

ومن ثم فإن دراسة السِّيرة النبوية التي يُعنى أهلها بتجميع الجزئيات وأدق التفاصيل، لا محالة تساعد العلماء على فهم الأحكام الشرعية والاستنباط منها، من خلال معايشة أحداثها، التي يستعينون بها في تقييد مطلق بعض الأدلة أو تخصيص عامها، ومنها يتعرفون الناسخ والمنسوخ من الأحكام، وهذا أمر هام تترتب عليه كثير من الأحكام الشرعية، ويتبين من خلاله مدى ارتباط علم الفقه بالسيرة النبوية.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد عن أم المؤمنين عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ، أَوْ بِذَاتِ الجَيْشِ، انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم عَلَى التِمَاسِهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَأَتَى النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ فَقَالُوا: أَلاَ تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ؟ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم وَبِالنَّاسِ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ؟ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ «وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ»، فَقَالَ: حَبَسْتِ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم وَالنَّاسَ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، قَالَتْ: فَعَاتَبَنِي، وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي، «فَلاَ يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم عَلَى فَخِذِي، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم حَتَّى أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ فَتَيَمَّمُوا»، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الحُضَيْرِ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَعَثْنَا البَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ، فَوَجَدْنَا العِقْدَ تَحْتَهُ»60.

وهذا الحدث من أحداث السيرة النبوية، يستدل به الفقهاء على مشروعية التيمم الذي ثبت بهذا الحدث أنه رخصة أكرم الله تعالى بها الأمة المحمدية ابتداء من السنة السادسة للهجرة، وتحديدا في غزوة المريسع[61].

ومثال آخر يستدل به على مدى حاجة علم الفقه إلى السيرة النبوية، ما ذكره فقهاء المالكية بخصوص التيمم وأنه لا يصلى به إلا فرض واحد، لأن الأصل في الطهارة أنها تجب لكل صلاة بدليل ظاهر الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [62]، ولكن السيرة النبوية خصصت من ذلك الطهارة بالماء،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حيث صلى النبي صلى الله عليه و سلم يوم فتح مكة صلوات بوضوء واحد، فبقي التيمم على أصله، إذ لم يرد فيه من التخصيص ما ورد في الوضوء[63].

ومن الأحكام الفقهية أحكام لم تثبت بدليل شرعي بعد البعثة، بل ثبتت بدليل قبل البعثة ولا سبيل إلى الاستدلال عليها إلا من خلال السيرة النبوية التي تشمل مروياتها مرحلة حياة النبي صلى الله عليه و سلم قبل البعثة، ومن ذلك الأحكام المتعلقة بشركة القراض، والدليل الذي يستدل به عليها هو فعل النبي مع السيدة خديجة حين خرج تاجرا بأموالها، وقد كان القراض في الجاهلية شائعا وأقره الإسلام لحاجة الناس إليه في تنمية أموالهم[64].

وهكذا تتضح مدى حاجة كل علماء الشريعة إلى السيرة النبوية، نظرا لما تتميز به مروياتها، من كونها تؤرخ لمرحلة ما قبل التشريع، التي تمتد من ولادة النبي صلى الله عليه و سلم إلى البعثة ومرحلة ما بعد البعثة.

المبحث الخامس: التكامل المعرفي بين السيرة النبوية وعلم التصوف

نظر الصوفية إلى السيرة النبوية نظرة بالغة الدقة، سعيا منهم إلى استنطاق مكنوناتها لاستخراج معالم وقواعد المنهج السلوكي الذي عاش وفقه سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم، فكانت لهم مع كل حدث سيري وقفة تأمل، ومع كل رواية تفكر وتدبر، واستطاع أئمة التصوف السني بفضل ما تميزوا به من صدق في التوجه إلى الله تعالى وإخلاص في الاقتداء بالمنهج النبوي، من إقامة أركان علم قائم الذات يبحث في الآداب والأخلاق اللائقة بالعبد بين يدي مولاه عز وجل، تُوصل الملتزم بها إلى المعرفة بالله تعالى وإخلاص توحيده، مرورا بتزكية النفس وتخليتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل، سعيا إلى عمارة الأرض والإصلاح فيها وفق ما يرضاه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه و سلم.

ورسول الله صلى الله عليه و سلم هو أنموذج الكمال البشري المطلق، فهو أعظم الناس معرفة بالله تعالى ومحبة فيه وخشية منه وشوقا إلى لقائه، وأكثر الناس زهدا في الدنيا وشهواتها، وفي السيرة النبوية تجد كل فئة من الناس بغيتهم ومطلوبهم، فكما يجد فيها التجار إشارات إلى سبل الكسب وتنمية الرزق، يجد الزهاد معاني الزهد وحقيقته ومقصده، ومنها يتعلم المبتلون أسمى درجات الصبر والثبات، فتقوى عزائمهم وتعظم ثقتهم، ومن السيرة تتعلم الأمة كلها العقائد السليمة، والآداب الرفيعة والأخلاق الحميدة، والعبادة الصحيحة والمعاملة القويمة[65].

والسيرة النبوية تقدم لكل مقبل عليها، صورة في غاية الكمال، للقدوة والمثال الذي لم ينسج على منوال، ومن خلالها يستدل الصوفية على كل أنواع المجاهدات التي يحملون عليها أنفسهم مثل الإكثار من الذكر والاجتماع عليه، والزهد والتقلل من الدنيا ومخالفة هوى النفس حتى فيما يتعلق ببعض المباحات، كذلك ما يتعلق بإسقاط المنزلة بين الأقران والسياحة في الأرض بلبس المرقعات، والعزلة ودخول الخلوة وغير ذلك.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكل واحدة من هذه الأمور إنما هي بمثابة الدواء الذي يأخذ منه العليل ما يناسب حال الداء الذي وقر في صدره، وحسب ما يصفه له الطبيب الخبير بأحوال النفوس الذي سار في نفس الطريق، وانفتحت بصيرته بما فتح الله به عليه من العلوم والمعارف، وهو الشيخ المربي الذي تحقق بأوصاف لا تتوفر عند غيره أبرزها الفتح الرباني والمعرفة الذوقية، يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ[66] ﴾، فالطريق "كسب"، والمعرفة التي هي الغاية "وهب".

ولما كان طريق التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل وعر المسالك، فإنه يحتاج إلى دليل خريت، وهو الشيخ المربي الخبير بأدواء النفوس لتربيتها وتزكيتها، ضمن سلسلة من المجاهدات يتدرج فيها السالك من خلال عدد من المقامات، تبدأ بالتوبة وتنتهي بالتوحيد الخالص الذي لا يخالطه حظ نفس ولا ميل لشهوة ولو بخاطر، لأن النفس قد قطعت العلائق والعوائق، فاستحقت الفتح الرباني بالعلوم والمعارف، هذا الفتح الذي يعتبر الشرط الأساس للولاية والمشيخة عند الصوفية.

ومسألة الشيخ المربي فيها: استجابة لأمر رباني، واقتداء بحال نبوي؛ أما الأول فهو المتمثل في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ اَنَابَ إِلَيَّ﴾ [67]، قال الطبري: "واسلك طريق من تاب من شركه، ورجع إلى الإسلام، واتبع محمدا صلى الله عليه و سلم"[68]، وقال ابن أبي زمنين: "طَرِيقَ مَنْ أَقْبَلَ إِلَيَّ بِقَلْبِهِ مخلصا"[69]. وأما الثاني فهو اقتداء بحال الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه و سلم، الذي كان يأمر كل واحد بما يناسب حاله من الأعمال والقربات، ومثال ذلك:

عن ابن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه و سلم أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه[70].

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم فَقُلْتُ: مُرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ. قَالَ: "عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَا عِدْلَ لَهُ"[71].

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: "أَنْ يُسْلِمَ قَلْبُكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْ يَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ"، قَالَ: فَأَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "الْإِيمَانُ"، قَالَ: وَمَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: "تُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ"، قَالَ: فَأَيُّ الْإِيمَانِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "الْهِجْرَةُ"، قَالَ: فَمَا الْهِجْرَةُ؟ قَالَ: "تَهْجُرُ السُّوءَ"، قَالَ: فَأَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "الْجِهَادُ"، قَالَ: وَمَا الْجِهَادُ؟ قَالَ: "أَنْ تُقَاتِلَ الْكُفَّارَ إِذَا لَقِيتَهُمْ"، قَالَ: فَأَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "مَنْ عُقِرَ جَوَادُهُ وَأُهْرِيقَ دَمُهُ"، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم: "ثُمَّ عَمَلَانِ هُمَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ بِمِثْلِهِمَا: حَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ وعُمْرَةٌ"[72].

عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: "قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: مَنْ سَلِمَ المسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ، وَيَدِهِ"[73].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والظاهر من هذه النصوص أن النبي صلى الله عليه و سلم أجاب السائلين عن أفضل الأعمال أو أحبها إلى الله بإجابات متباينة، تناسب كل واحدة منها حاجة السائل وقدرته وحاله مع الله، وحسب ما يمكن أن يرقيه في درجات القرب والمعرفة بالله عز وجل.

ولا شك أن معهود أهل العلم وعامة الناس، أن التوصل إلى المعرفة إنما يتم عن طريق إعمال العقل أو إعمال الحس، أو بتكامل العقل والحس في النصوص الشرعية أو المشاهدات الكونية المادية أو الاجتماعية أو النفسية، ولم ينكر الصوفية ذلك، ولكنهم أضافوا إلى هذه الوسائل المعروفة بالانضباط المنهجي، وسيلة أخرى هي المنهج العرفاني الذوقي، وبذلوا جهودا كبيرة في تأصيل هذا المنهج تأصيلا شرعيا وعقليا، ليثبتوا أن المعرفة الذوقية ممكنة وغير مستحيلة، وأن الظن السائد لدى كثيرين بأن الوصول إلى المعرفة يقتصر على الأدلة العقلية هو "تضييق لرحمة الله الواسعة".

واستدلوا بآيات تؤكد ما يهبه الله للمتقين من فرقان ورزق ونور ورحمة وهداية وحكمة، وبأن ذلك كله معرفة ذوقية، وعلم بغير تعليم، وفطنة من غير تجربة، واستدلوا كذلك بالأحاديث التي تتحدث عن فراسة المؤمن وانشراح صدره بالنور الذي يقذفه الله في قلبه، مع أقوال الصحابة والأئمة تتحدث عن الإلهام بغير تعليم.

مثال ذلك: ما اشتهر من ترجمة الإمام أبي القاسم الجنيد، سيد الطائفة وإمام التصوف السني، أنه قال: «قال لي خالي سري السقطي: "تكلم على الناس". وكان في قلبي حشمة من الكلام على الناس، فإني كنت أتهم نفسي في استحقاقي ذلك، فرأيت ليلة في المنام رسول الله صلى الله عليه و سلم، وكانت ليلة جمعة، فقال لي: "تكلم على الناس"، فانتبهت، وأتيت باب السري قبل أن أصبح، فدققت الباب فقال لي: "لم تصدقنا حتى قيل لك". فقعدت في غد للناس بالجامع، وانتشر في الناس أن الجنيد قعد يتكلم على الناس، فوقف علي غلام نصراني متنكرًا، وقال: "أيها الشيخ ما معنى قول رسول اللهصلى الله عليه و سلم: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"[74]، فأطرقت ثم رفعت رأسي وقلت: أسلِم فقد حان وقت إسلامك، فأسلم الغلام»[75].

وفي هذا فيه إشارة إلى حصول الإلهام للسري السقطي مرتين (أمره الأول للجنيد/ ومكاشفته بما جاء من أجله)، وللجنيد مرتين (اطلاعه على كفر الغلام/ وأنه سيسلم في الحال). وللإشارة فإن الصوفية لم ينفردوا بالاستدلال على هذا العلم الإلهامي، بل تحدث عنه غيرهم مثل ابن تيمية وابن القيم، فلا ينكر أحد أن الله سبحانه يتفضل على من يشاء من عباده بصور من المكاشفات والإلهامات، وقد ورد في الحديث الصحيح عند مسلم من حديث عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ» قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: تَفْسِيرُ مُحَدَّثُونَ: مُلْهَمُونَ[76].

وبالاطلاع على السيرة النبوية وسير الصحابة والتابعين وسائر الصالحين، لا يكاد يبقى لأحد حجة ينكر بها على الصوفية أحوالهم ومواجدهم، لأن قصدهم هو الاقتداء بالأنموذج والمثال، ولا يخفى أن الناس في اقتدائهم برسول الله صلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الله عليه و سلم درجات، وذلك ما تؤكده سير الصحابة والتابعين الذين كانوا أقرب الناس إليه، ولعلهم أعرف الناس به صلى الله عليه و سلم، ومثال ذلك أن جُبَير ابنَ مُطْعم استمع إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم يقرأ في المغرب بسورة الطور فلما بلغ هاتين الآيتين: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾[77] قال: جبير: "كاد قلبي أن يطير"[78]. قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: "إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى الآية ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة، فاستدركها بلطيف طبعه، واستشف معناها بذكي فهمه"[79].

وهذا يبين أن الناس في مراتب الفهم عن الله درجات، وأن لهم في درجات الإحسان مقامات، وكم من الناس يمرون على هذه الآية وغيرها فلا تحرك قلوبهم ولا تهز وجدانهم ولا تثير من المعاني ما أثارته في قلب هذا الصحابي الجليل الذي حصل له ما حصل قبل إسلامه، فقد بينت روايات أخرى أن ذلك حصل له حين كان من أسرى بدر.

أمثلة لاستدلال صوفية المغرب بالسيرة النبوية:

لم يدخر أئمة التصوف المتشبعون بروح السيرة النبوية وسير الصحابة والسلف الصالح من الأمة، من أهل المغرب غيرهم، جهدا في بيان حقيقة التصوف السني وتصحيح مساره في العصور المتأخرة التي اتهم فيها التصوف بالانحراف عن المنهج السني والبعد عن الفقه في الدين بسبب سلوكات بعض الدخلاء وأدعياء التصوف، ونستعرض في هذه الفقرات نماذج واقتباسات توضح الكيفية التي ينظر بها صوفية المغرب المتأخرين إلى التصوف من حيث مدى اتصاله أو انفصاله عن السنة والسيرة النبوية.

استنادا إلى حديث جبريل عليه السلام يبين العلامة الصوفي مَحمد بن عبد الواحد لحلو[80] (ت1341هـ/ 1923م) أن الدين يشمل الإسلام والإيمان والإحسان، وأن قيام المسلم بهذه الأركان على أكمل وجه لازم، ويقتضي الجمع في المعرفة بين الشريعة والطريقة والحقيقة، وفي ذلك يقول: «..فالشريعة للقالب والطريقة للقلب والحقيقة للروح، أو تقول: الشريعة لمقام الإسلام، والطريقة لمقام الإيمان، والحقيقة لمقام الإحسان، فالأولى تهذب جوارحك بالخدمة، والثانية تُقَوم اعوجاج قصدك بالتحلي بالأخلاق المحمدية في مقام العبودية، والثالثة تصفي لك زلال معرفتك بفناء صفاتك واضمحلال ذاتك وتلاشيك وفقدانك، فالتخلق بالأولى تذوق فيه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[81]، وقوله صلى الله عليه و سلم: " شَيَّبَتْنِي هُودٌ "[82]، والتخلق بالثانية تذوق قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[83]، وقوله صلى الله عليه و سلم: "أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا"[84]، والتخلق بالثالثة تذوق قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[85]، وقوله صلى الله عليه و سلم: "فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"[86]..»[87].

وكان الشيخ عبد الله بن عزوز[88] (ت1204هـ/1789م) –الشاذلي طريقة– شديد الإنكار على المبتدعين في الدين بصفة عامة، ولشدة تعلقه بالسنة والسيرة النبوية وسيرة السلف الصالح من الأمة، يؤكد أن المؤمن صحيح الإيمان، عليه أن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يتشبه بصحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم، في الأقوال والأفعال والأحوال، لأن من تشبه بهم حُشر معهم وهو منهم، ومن تشبه بغيرهم حُشر معهم وهو منهم[89].

ويربط البدعة بمخالفة سيرة النبي وسيرة الصحابة فيقول إنها: «ما لم تكن في عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم، ولم تكن الصحابة رضي الله عنهم عليه من أقوال وأفعال وأحوال»[90]، لذلك أنكر بدعا على فقهاء الشريعة[91]، منها قول بعضهم بأن في القرآن ما لا يعمل عليه، ولم يبقى له حكم ونحو ذلك، كما أنكر على أهل الطريقة، ادعاء قوم منهم الولاية بغير علم ولا عمل، وتشريعهم للناس تشريعات مع إلزامهم بشروط، حتى جعلوا على أيديهم النفع والضر، واقتنع الجهال من تلامذتهم بذلك واعترفوا بمحض الخدمة والعبودية لهم، فيقول تشنيعا عليهم في حالهم: «..فصار الشيخ وارثا لفرعون في حالته، مستخدما لعباد ربه بشهرة دعوته، وصار التلميذ وارثا لهامان في عبوديته..»[92].

وكان العلامة محمد المكودي[93] (ت1214هـ/ 1799م) صوفيا على نهج الطريقة الدرقاوية الشاذلية، متشبعا بروحها ومبادئها، حتى إنه ألف في الانتصار لها، كتاب "الإرشاد والتبيان" الذي رد فيه على المنكرين لها من أهل تطوان، بدعوى مخالفة أصولها للشريعة، والطاعنين في سلوكات مريديها المنكل بهم، بدعوى ارتكابهم للبدع المحرمة، فأبرز في الكتاب أصول طريقته الشرعية ومرجعيتها السنية، بالاعتماد على آيات الذكر الحكيم وأحاديث سيد المرسلين صلى الله عليه و سلم، وبأمثلة من سِير الصحابة والصالحين، واستشهادات من كلام المتقدمين من العلماء الراسخين والأئمة العارفين، حتى جاء الكتاب في مجمله مصدرا يمكن أن يعتمد عليه كل سالك لطريق الصوفية عامة، وكل مريد درقاوي بصفة خاصة، إذ عرض فيه الاستدلال لأغلب المظاهر والحيثيات التي كانت تُنتقد على الفقراء ومن بينها: رياضة النفس ومجاهدتها، لبس المرقعة، تعرية الرأس، المشي بالحفا، اتخاذ السبحة، وجعلها في العنق، اتخاذ العصا، سؤال الناس من غير حاجة، الاجتماع للذكر، والجهر به...، فبين رحمه الله أن قصد الفقراء من ذلك، ليس ما يظهر عليهم من الأحوال، وإنما قصدهم إصلاح ما بينهم وبين خالقهم سبحانه، ولا عليهم فيما سوى ذلك[94].

ويصف العلامة عبد القادر الكوهن[95] (ت1254هـ/1838م) الأسس والمعالم التي أسس عليها الشيخ العربي الدرقاوي طريقته بقوله: «وطريقته رضي الله عنه مبنية على السنة في جميع الأقوال والأفعال، والعبادات والعادات، ومجانبة جميع البدع في ذلك كله، وكسر النفس مع إسقاط التدبير والاختيار، والتبري من الدعوى والاقتدار، وقطع الطمع من المخلوقين، والإعراض عن الدنيا، وكثرة الذكر آناء الليل وأطراف النهار، والسلوك بكلمة الإخلاص، والمذاكرة في كلام القوم والصمت عما لا يعني، والورع والزهد والتقوى والتجريد الظاهري والباطني الذي كان عليه أبو يزيد البسطامي والجنيد وغيرهما من الأولياء الكُمل ونفعنا بهم في الدارين آمين»[96]. ولشدة تعلقه بطريقته ذات الأصول الشاذلية، ينقل عن الشيخ زروق قوله: «لو حلف حالف ولا يستثني أن ما عليه أهل الطريقة الشاذلية، هو الذي كانت منطوية عليه صدور الصحابة رضي الله عن جميعهم لَبَرَّ في يمينه»[97].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي خضم حديث العلامة التهامي الوزاني(ت 1392هـ/ 1972م) عن سيرة حياته التي دونها في كتاب "الزاوية"، تستوقف القارئ فقرة يظهر من خلالها مدى تشبعه العميق بروح السيرة النبوية وأحوال النبي صلى الله عليه و سلم وصحابته في عباداتهم، وبالتصوف الإسلامي القائم على العبادة والمجاهدة والالتزام بالقرآن والسنة، يقول فيها: «هناك أقوام جعلوا عبادة الله شغلهم الأول والآخر، لا يعرفون عنا إلا مقدار ما نعرفه عنهم، وبينما نحن تائهون في غمرات الدنيا ومنغمسون في حمأة الشهوات، إذا بهم قد فقؤوا عين الشيطان ورفضوا هوى النفس، وتجافت جنوبهم عن المضاجع، فوقفوا في المحاريب يبكون ويبتهلون تارة، ويأنسون وينبسطون أخرى، وهم في ذلك كله بالله ومع الله وفي الله، فجازاهم ربهم بأن أعانهم ووفقهم وسدد خطاهم وفتح أعين بصائرهم حتى رأوا الأشياء البعيدة وكأنها على مقربة منهم، ونظروا بنور الله فما رأوه حقا كان حقا، وما رأوه أنه باطل فهو باطل، ثم لم يكتفوا بإلهامهم ولم يعتمدوا على خطرات نفوسهم، وخافوا مكر الله واستدراجه، لأنهم غير معصومين، وليس لديهم ما يؤيد إلهامهم، فهم لذلك يخافون أن يكونوا مستدرجين، وذهبوا في الفهم عن الله مذاهب متنوعة، والكل مصر على أن يقوم بواجب العبودية، طبق ما جاءت به الشريعة الإسلامية، وما يفرضه الكتاب والسنة»[98].

وفي نفس السياق كتب العلامة عبد العزيز بنعبد الله (ت1433هـ/ 2012م)، مقالا بعنوان "التصوف المحمدي" ليؤكد أنه لا تصوف إلا تصوف الرسول صلى الله عليه و سلم، إبرازا للوجه الحقيقي للإسلام، وتنديدا بالطرفين المتقابلين: التصوف المنحرف، والتشدد في الدين، وفيه اعتمد كثيرا على الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، واستعرض نماذج وأمثلة من سيرة النبي صلى الله عليه و سلم، ومن حياة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، كلها تعكس حقيقة القيم الإسلامية الفاضلة، التي تعتبر محرك التصوف ومنبعه، وكذلك أبرز المراحل التي مر بها التصوف عبر قرون، من زمن النبي صلى الله عليه و سلم إلى الزمن المعاصر، فنجده يؤكد أن الإسلام يدعو إلى العبادة والعلم والعمل، وأن المسلم الحق والصوفي الحقيقي، هو من يجمع بين هذه الأمور كلها، كما كان السلف الصالح[99].

وكل ما تحدث عنه الصوفية مما تقدم، إنما استفادوه من السيرة النبوية ومن منهج السلوك النبوي الذي تجلى في حياته صلى الله عليه و سلم وحياة كثير من الصحابة رضي الله عنهم.

خاتمة :

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[100]، إنه تكليف رباني من الله تعالى للأمة الإسلامية بأن تكون أمةً وسطا تتجلى فيها معاني الحق والعدل، التي هي من ثمرات توحيد الله الخالق وتزكية الإنسان المخلوق، وتتجلى فيها مظاهر البناء الفكري والتطور الحضاري، وكل معاني الاستخلاف والعمران التي تؤهلها لقيادة البشرية نحو الصلاح والرشاد.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من هذا المنطلق، اعتبرت السيرة النبوية مفتاحا لنهضة الأمة الإسلامية وتقدمها، وسراجا يهتدي به الباحثون والدارسون في مجالات العلوم المتنوعة، ومعراجا يرتقي من خلاله العلماء والمفكرون إلى أعلى آفاق المعرفة الدينية الربانية، والمعرفة الدنيوية الحضارية.

فقد تشكلت سيرته صلى الله عليه و سلم وفق أحداث ومواقف نورانية، تجلت من خلالها أهمية الأخذ بأسباب النصر والتمكين وفقًا لِمُراد الله لتحقيق الحضارة الإنسانيَّة على الأرض، وهي توضح كيف يندمج القرآن والإنسان في كيانٌ واحد متمثّل في شخصِ رسول الله صلى الله عليه و سلم، وكيف كانت سيرته الشريفة تَّرجمة حيَّة لما اشتملَ عليه القرآنُ الكريم من تَعاليمَ وأحكام.

إننا في أمس الحاجة لمعرفة المنهاج النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة، ومعرفة سنن الله في الشعوب والأمم والدول، وكيف تعامل معها النبي صلى الله عليه و سلم عندما انطلق بدعوة الله في دنيا الناس حتى نلتمس من هديه صلى الله عليه و سلم الطريق الصحيح لأداء الأمانة التي على عاتقنا حتى نحقق التمكين لديننا من خلال قيمنا وأخلاقنا، ونقيم بنيان حضارتنا على منهجية سليمة مستمدة أصولها وفروعها من كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه و سلم.

لذلك أضحت دراسة السيرة النبوية واجبا على كل العلماء والقادة والحكام، إذ بها يعرف الطريق إلى تحقيق العزة للإسلام والمسلمين، ومن خلالها تتعلم كل فنون الإدارة وأساليب القيادة، وبها تدرك أهمية التخطيط للواقع والمستقبل، وكيفية مواجه القوى، ومناهج التغلب عليها بكل حكمة وتبصر.

وهذا الذي ذكر حول أهمية السيرة النبوية ومدى التكامل بينها وبين العلوم الشرعية، ما هو إلا نقطة في بحر فضائلها التي أحببنا أن نشد الانتباه إليها، وأرجو أن تكون هذه الأفكار قد أثارت من الإشكالات والتساؤلات ما من شأنه أن يزيد في رفع الهمم، والتحفيز على مزيد من البحث والاطلاع، خصوصا أن قيمة مثل هذه الأبحاث لا تكمن فيما تقدمه من معطيات ومعلومات فحسب، بل تكمن كذلك فيما تثيره من قضايا خلافية وإشكالات علمية وتساؤلات توجه نحو القراءة والبحث.

وإذا كان الناس أعداء ما جهلوا، فإن العلم يورث المعرفة، ومعرفة النبي صلى الله عليه و سلم تورث محبته، ومحبته صلى الله عليه و سلم تثمر طاعته والاقتداء به واتباع سنته، وكذلك كان الصحابة رضي الله عنهم فقد أورد الإمام الطبراني عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: جاء رجل إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم فقال: "يا رسول الله، والله إنك لأحبُّ إليّ من نفسي، وإنك لأحب إليّ من أهلي، وأحب إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلتَ الجنة رُفعت مع النبيين، وأني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يردّ عليه النَّبِيِّ صلى الله عليه و سلم حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّئِينَ وَالصِّدِّيقِينَ والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾"[101].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد بشر النبي صلى الله عليه و سلم أنه سيكون في أمته من بعده من هو أشد حبا له من الصحابة المتقدمين، إذ أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ».

فاللهم وفقنا إلى طاعتك، وارزقنا حبك وحب نبيك وعملا بكتابك، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

1- موجز دائرة المعارف الإسلامية، مراجعة وإشراف: حسن حبشي وآخرون، 19/ 6014.

2- الأساس في السنة وفقهها: السيرة النبوية، سعيد حوّى(ت1409هـ)128/1.

3- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي (ت1384هـ) 1/ 47.

4- سورة القلم، الآية: 04.

5- سورة النور، الآية: 54.

6- شمس العلوم، نشوان بن سعيد الحميري 9/ 5903.

7- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل 3/ 1959.

8- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون 2/ 798.

10- اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون، موسى بن راشد العازمي، ص: 15- 18.

11- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي (ت463هـ) 2/ 287 – 288.

12- سورة الأنعام، الآية: 90 – صيد الخاطر، ابن الجوزي (ت597هـ) ص: 80.

13- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين بن عبد السلام (ت660هـ) 1/ 149.

14- السيرة النبوية على ضوء الكتاب والسنة، د محمد أبو شهبة 1/ 7 – 8.

15- فقه السيرة، الشيخ محمد الغزالي ص: 5.

16- رجال من التاريخ، الشيخ علي الطنطاوي ص: 21.

17- حياة الصحابة، الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي 1/ 15.

18- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أحمد بن عجيبة (ت1224هـ) 3/ 54.

19- الأساس في السنة وفقهها: السيرة النبوية، سعيد حوّى 1/ 95.

20- الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد علي بن حزم الأندلسي (ت456هـ) 2/ 73.

21- فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 15.

22- سيرة الرسول: صورة مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية، محمد عزة دروزة، مطبعة الاستقامة 1948م.

23- سورة آل عمران، الآية: 121.

24- تفسير نصرة الإسلام في إخراج مقامات الدين من القرآن، عبد الوهاب لوقش التطواني 2/ 214.

25- سورة آل عمران، الآية: 122.

26- تفسير نصرة الإسلام، لوقش 2/ 225-226.

27- أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي الواحدي (ت468هـ) ص: 08.

28- العجاب في بيان الأسباب، أحمد بن حجر (ت852هـ)، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي.

29- المصدر الثالث: كتب المغازي والسير ثم كتب التاريخ العام ثم كتب دلائل النبوة ثم كتب الشمائل ثم الكتب المؤلفة حول مكة والمدينة. الأساس في السنة وفقهها: السيرة النبوية، سعيد حوّى 1/ 109.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

30- سنن الترمذي 5/ 45، ح2677. قال الترمذي: حديث حسن.
31- تدريب الراوي، السيوطي ص: 05.
32- علوم الحديث ومصطلحه: عرضٌ ودراسة، د صبحي الصالح (ت1407ه)، دار العلم للملايين، لبنان، 1984م.
33- صحيح مسلم 3/ 1600، ح 2024.
34- المرجع السابق 3/ 1601، ح 2026.
35- المرجع السابق 3/ 1602، ح 2027.
36- صحيح البخاري 7/ 110، ح 5615.
37- مسند أحمد 45/ 438، ح 27448، قال المحقق(شعيب الأرنؤوط): إسناده صحيح.
38- سنن الترمذي 3/ 365، ح 1883، وقال: هذا حديث حسن.
39- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا النووي (ت676ه) 13/ 195.
40- انظر: منهج النقد في علوم الحديث، د نور الدين عتر، دار الفكر، 1981م - علوم الحديث ومصطلحه: عرضٌ ودراسة، د صبحي الصالح (ت1407ه)، دار العلم للملايين 1984م.
41- انظر: - الأساس في السنة وفقهها: السيرة النبوية، سعيد حوّى 1/ 96 - مرويات السيرة بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين، مسفر بن غرم الله الدميني ص: 13- 16.
42- مرويات السيرة بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين، الدميني ص: 27.
43- مقال منشور بمجلة الواضحة الصادرة عن دار الحديث الحسنية العدد: 8، على الرابط :
https://www.edhh.org/wadiha/index.php/la-relation-de-la-biographie-a-la-sunna-prophetique
44- مرويات السيرة بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين، الدميني ص: 23.
45- متفق عليه: صحيح البخاري 6/ 3، ح 4418، صحيح مسلم 4/ 2120، ح 2769.
46- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية (ت751ه) 3/ 505- 506.
47- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، شمس الدين محمد السخاوي (ت902ه) 1/ 25.
48- الدعوة الإسلامية في عهدها المكي: مناهجها وغاياتها، د رؤوف شلبي، ص: 95.
49- المرجع السابق ص: 51.
50- سورة فصلت، الآيات: 1-5.
51- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام (ت213ه) 1/ 293- 294. (وقد قَتَل حمزة بن عبد المطلب عتبة بن ربيعة يوم بدر في المبارزة).
52- صحيح مسلم 1/ 381، ح 537.
53- مقال: مشروعية علم الكلام عند الأشعري ومشروعه، الدكتور جمال علال البختي ص: 54- 55، مجلة الإبانة العدد 1.
54- سورة الأعراف، الآية: 138.
55- سنن الترمذي، أبو عيسى (ت279ه) 4/ 475، ح 2180. قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وقال الألباني: صحيح.
56- منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل، جمال الدين بن الحاجب(ت646ه) ص: 47.
57- المرجع السابق ص: 03-04.
58- انظر: الأساس في السنة وفقهها: السيرة النبوية، سعيد حوّى 1/ 129-131.
59- انظر: تطور المنهج الأصولي عند المالكية وأثره في الاختلاف الفقهي، د محمد إلياس المراكشي ص: 439.
60- متفق عليه: صحيح البخاري 5/ 7، ح 3672، صحيح مسلم 1/ 279، ح367.
61- انظر: مدونة الفقه الإسلامي وأدلته، الدكتور الصادق عبد الرحمن الغرياني 1/ 218.
62- سورة المائدة، الآية: 6.
63- مدونة الفقه الإسلامي وأدلته، الغرياني 1/ 225.
64- المرجع السابق 3/ 545.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

65- انظر: الرسالة المحمدية، سليمان الندوي(ت1373ه) ص: 153- 159.

66- سورة البقرة، الآية: 282.

67- سورة لقمان، الآية: 15.

68- جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري (ت310ه) 20/ 139.

69- تفسير القرآن العزيز، أبو عبد الله محمد الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (ت399ه) 3/ 374.

70- متفق عليه.

71- مسند أحمد 36/ 465، ح22149، وسنن النسائي 4/ 165، ح 2222. حديث صحيح.

72- مسند أحمد 28/ 252، صحيح.

73- متفق عليه.

74- سنن الترمذي 5/ 149، ح 3127، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ هَذَا الوَجْهِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ} قَالَ: لِلْمُتَفَرِّسِينَ.

75- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، شمس الدين بن خلكان البرمكي (ت681ه)، 1/ 373.

76- صحيح مسلم 4/ 1864، ح 2398.

77- سورة الطور، الآيتان: 35- 36.

78- صحيح البخاري 6/ 140، ح 4854.

79- الأسماء والصفات، أبو بكر البيهقي (ت458ه) 2/ 270.

80- "إتحاف المطالع"، "سل النصال"، ابن سودة، موسوعة أعلام المغرب 2930/8 - الأعلام، الزركلي 255/6.

81- سورة الشورى، الآية: 13.

82- أخرجه الترمذي في سننه وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

83- سورة القلم، الآية: 04.

84- متفق عليه.

85- سورة الفتح، الآية: 10.

86- متفق عليه.

87- حلل الصدق والتمكين للفقير المسكين، محمد بن عبد الواحد لحلو، ص:344.

88- الإعلام، السملالي 317/8، ترجمة: 1208 - إتحاف المطالع، ابن سودة، موسوعة أعلام المغرب 7/ 2442.

89- تنبيه التلميذ المحتاج في الجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة وهو المنهاج في الرد على من ابتدع فيهم ما ليس منهم بإيضاح البراهين وإقامة الحجج، عبد الله بن عزوز المراكشي، ص: 340.

90- المرجع السابق ص: 340.

91- المرجع السابق ص: 351.

92- المرجع السابق ص: 367.

93- إتحاف المطالع، عبد السلام ابن سودة، موسوعة أعلام المغرب، 7/ 2469 - الأعلام، الزركلي 7/ 71.

94- الإرشاد والتبيان، محمد المكودي، تحقيق: د عبد المجيد البوكاري ص: 91.

95- معجم طبقات المؤلفين، ابن زيدان 2/ 184 ترجمة 152 - فهرس الفهارس، عبد الحي الكتاني 1/ 490، ترجمة: 282 - الأعلام، الزركلي 37/4.

96- فهرسة: إمداد ذوي الاستعداد إلى معالم الرواية والإسناد، عبد القادر الكوهن، ص: 42.

97- المرجع السابق، ص: 46.

98- الزاوية، التهامي الوزاني ص: 42.

99- مقال "التصوف المحمدي"، على موقع : http://abdelazizbenabdallah.org

100- سورة البقرة، الآية: 143.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

101- المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني (ت360هـ) 1/ 152، ح477 - الروض الداني (المعجم الصغير) الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، دار عمار 1985م - قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن عمران العابدي، وهو ثقة. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين الهيثمي (ت807هـ) 7/ 07، ح 10937.

قائمة المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

2- الإرشاد والتبيان في رد ما أنكره الرؤساء من أهل تطوان، محمد المكودي، تحقيق: د عبد المجيد البوكاري، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان 1419هـ/2008م.

3- الأساس في السنة وفقهها: السيرة النبوية، سعيد حوّى(ت1409هـ)، دار السلام، ط3، 1416هـ/ 1995م.

4- أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي الواحدي النيسابوري الشافعي (ت468هـ)، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط2، 1412هـ/ 1992م.

5- الأسماء والصفات، أبو بكر البيهقي (ت458هـ)، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة السعودية، ط1، 1413هـ/ 1993م.

6- الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي الدمشقي (ت 1396هـ)، دار العلم للملايين، ط5، 1980م.

7- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي، مراجعة: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية الرباط، ط2، 1413هـ/ 1993م.

8- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن عجيبة الحسني الأنجري (ت1224هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة، طبعة 1419هـ.

9- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي(ت911هـ)، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة د ت.

10- تطور المنهج الأصولي عند المالكية وأثره في الاختلاف الفقهي، د محمد إلياس المراكشي، مركز الموطأ، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2018م.

11- تفسير القرآن العزيز، أبو عبد الله محمد الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (ت399هـ)، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، محمد بن مصطفى الكنز، مطبعة الفاروق الحديثة، القاهرة مصر، ط1، 1423هـ/ 2002م.

12- تفسير نصرة الإسلام في إخراج مقامات الدين من القرآن، أبو محمد عبد الوهاب لوقش الأموي الأندلسي التطواني، إشراف واعتناء وتقديم: د جعفر ابن الحاج السلمي، تخريج: د عبد الرحيم الصليعي، منشورات جمعية تطاون أسمير، ط1، 2011م.

13- تنبيه التلميذ المحتاج في الجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة وهو المنهاج في الرد على من ابتدع فيهم ما ليس منهم بإيضاح البراهين وإقامة الحجج، عبد الله بن عزوز المراكشي، مخطوط بالمكتبة الوطنية، ضمن مجموع رقم: 150ك.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

14- جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري (ت310هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/ 2000م.

15- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أبو بكر الخطيب البغدادي (ت463هـ)، تحقيق: د محمود الطحان، مكتبة المعارف الرياض د ت.

16- حلل الصدق والتمكين للفقير المسكين، محمد بن عبد الواحد لحلو، مخطوط بالمكتبة الوطنية، ضمن مجموع رقم: 140(7)-ك، من ص: 334 - 336.

17- حياة الصحابة، محمد يوسف بن محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي (ت1384هـ)، تحقيق: د بشار عوّاد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط1، 1420هـ/ 1999م.

18- الدعوة الإسلامية في عهدها المكي: مناهجها وغاياتها، د رؤوف شلبي، دار القلم ط3 د ت.

19- رجال من التاريخ، الشيخ علي الطنطاوي، دار المنارة جدة 2011م.

20- الرسالة المحمدية، سليمان الندوي(ت1373هـ)، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1423هـ.

21- الروض الداني (المعجم الصغير)، أبو القاسم الطبراني (ت360هـ)، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، نشر المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان، ط1، 1405/ 1985م

22- زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت751هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط27، 1415هـ /1994م.

23- الزاوية، التهامي بن عبد الله الوزاني، مراجعة وتقديم: د عبد العزيز السعود، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2008م.

24- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي (ت1384هـ)، المكتب الإسلامي: دمشق سوريا، بيروت لبنان، ط3، 1402هـ/ 1982م.

25- سنن الترمذي، أبو عيسى (ت279هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، ط2، 1395هـ/ 1975م.

26- سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت303هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ط2، 1406هـ/ 1986م.

27- سيرة الرسول: صورة مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية، محمد عزة دروزة، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ط1، 1367هـ/ 1948م.

28- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام (ت213هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1375هـ/ 1955م.

29- السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (ت1403هـ)، دار القلم،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دمشق، ط8، 1427هـ.

30- شمس العلوم، نشوان بن سعيد الحميري، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإرياني، د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت- لبنان)، دار الفكر (دمشق- سورية)، ط1، 1420هـ/ 1999م.

31- صحيح البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.

32- صحيح مسلم: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت261هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت د ت.

33- صيد الخاطر، أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، عناية: حسن المساحي سويدان، دار القلم دمشق، ط1، 1425هـ/ 2004م.

34- العجاب في بيان الأسباب، أحمد بن حجر العسقلاني (ت852هـ)، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي.

35- علوم الحديث ومصطلحه: عرضٌ ودراسة، د صبحي إبراهيم الصالح (ت1407هـ)، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط15، 1984م.

36- الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد علي بن حزم الأندلسي (ت456هـ)، مكتبة الخانجي القاهرة، د ت.

37- فقه السيرة، محمد الغزالي السقا (ت1416هـ)، دار القلم دمشق، تخريج الأحاديث: محمد ناصر الدين الألباني، ط1، 1427هـ.

38- فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر دمشق، ط25، 1426هـ.

39- إمداد ذوي الاستعداد إلى معالم الرواية والإسناد -ضمن كتاب- ثلاثة فهارس مغربية، ضبط وتصحيح عبد الرحمان سعيدي، دار الكتب العلمية، ط1، 2004م/ 1425هـ، يشتمل على: 1- إمداد ذوي الاستعداد إلى معالم الرواية والإسناد، عبد القادر بن أحمد الكوهن الفاسي(ت1254هـ). 2- المورد الهني بأخبار الإمام مولاي عبد السلام الشريف القادري الحسني، محمد بن أحمد بن عبد القادر الفاسي (ت 1179هـ). 3- فهرسة العلامة القاضي سيدي أحمد بن محمد بن عبد السلام بناني (ت 1327هـ).

40- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، شمس الدين محمد السخاوي (ت902هـ)، تحقيق: علي حسين

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

علي، مكتبة السنة، مصر، ط1، 1424هـ / 2003م.
41- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، عبد الحي الكتاني، باعتناء: د إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط2، 1402هـ/1982م.
42- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (ت660هـ)، مراجعة وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، طبعة 1414هـ/ 1991م.
43- اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون، موسى بن راشد العازمي، المكتبة العامرية الكويت، ط1، 1432هـ/ 2011م.
44- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين الهيثمي (ت807هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1414هـ/ 1994م.
45- مدونة الفقه الإسلامي وأدلته، الدكتور الصادق عبد الرحمن الغرياني، مؤسسة الريان ط1، 1423هـ/ 2002م.
46- مرويات السيرة بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين، مسفر بن غرم الله الدميني، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
47- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت241هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ/ 2001م.
48- المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني (ت360هـ) تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة
49- معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين، عبد الرحمن ابن زيدان، دراسة ببليومترية وتحقيق: د حسن الوزاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب 1430هـ/ 2009م.
50- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط1، 1429هـ/2008م.
51- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، نشر دار الدعوة د ت.
52- منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل، جمال الدين بن الحاجب (ت646هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1405هـ/1985م.
53- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحي بن شرف النووي (ت676هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ.
54- منهج النقد في علوم الحديث، د نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق سوريا، ط3، 1401هـ/1981م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

56- موجز دائرة المعارف الإسلامية، مراجعة وإشراف: حسن حبشي، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، محمد عناني، نشر مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط1، 1418هـ/ 1998م.

57- موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1417هـ/ 1996م، ضمنها:

58-دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، محمد بن عسكر الشفشاوني

59-نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري

60- إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، عبد السلام ابن سودة

61-تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وأحداث السنين، عبد الكبير بن المجذوب الفاسي

62-سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال، عبد السلام ابن سودة

63-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، شمس الدين بن خلكان البرمكي (ت681هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت.

65-مجلة الواضحة، تصدر عن دار الحديث الحسنية العدد: 8، على الرابط :

https://www.edhh.org/wadiha/index.php/la-relation-de-la-biographie-a-la-sunna-prophetique

66-موقع العلامة المغربي عبد العزيز بن عبد الله، على الرابط:

http://abdelazizbenabdallah.org

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com